



كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

Islamic Studies & College of Sharia

مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

Journal of college of Sharia & Islamic Studies

مجلة علمية محكمة

Academic Refereed Journal

العدد (٢٦) ٢٠٠٨ م - 2008 Vol.(26)

الإمام شاه ولي الله الدهلوي وجهوده في خدمة السنة النبوية

تأليف

د. / شيخه حمد العطييه

جامعة قطر

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

تقرأ في هذا البحث :

عن الجهيد المجدد الهمام المسند العلامة الإمام شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله ؛ الذي صنف ودرس وخرج القادة وحشد لخدمة السنة من تلاميذه الجم الغفير ، وواجه الاستعمار ، وأقام المدارس العلمية التي لا يزال أثرها إلى الآن مفخرة لأهل العلم . وتشهد حياة الإمام الدهلوي كلها على أنه كان منصرفاً اتصرفاً كلياً إلى خدمة الحديث الشريف، شرحه وتفهمه ، وتدرسه وتعليمه ، ونشره وتعميمه .

الهدف من هذا البحث :

تناول شخصية «الإمام شاه ولي الله الدهلوي بالبحث والدراسة في مجال خدمة السنة. ومناقشته عن حجية السنة. فهذه الشخصية العلمية لم تلق نصيبها من الاهتمام والإبراز بما يليق بمكانته خصوصاً لو عرفنا أن ظهوره كان في عصر ركود وجمود العلم الحديثي والفقهى - فهو بحق مجدد السنة في عصره - .

الحمد لله الذي رفع جيد أهل السنة ووضع هامة الأباطيل، وأظهر حجته البالغة كالشمس على ظلام التضليل، وأقام على حياضها أناسا وإن كانوا غير أنبياء إلا أنهم ورثتهم وجعلهم في كل جيل، العدول الذين ينفون عنها تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين، فنعتوا بالتجديد من صاحب الرسالة ويا له من نعت في غاية التبجيل، ونضر الله وجوههم بدعوته فكانت لتميزهم سمة وعليهم دليل . وكيف وقد قرنهم الحق سبحانه مع حبيبه فقال في محكم التنزيل ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وما أنا من المشركين ﴾ . وصلاة وسلاما على مشكاة تلك الحضرات، وإمام أهل الحق المؤيد بالمعجزات، من أوتي جوامع الكلم ومجامع الكلمات. فغضت البلاغة طرفها أمام شمس تلكم الآيات، وغاضت عن إدراك شأوها طوامح الغايات ومطامح المعارضات.

ردت بلاغتها دعوى معارضتها رذ الغيور يد الجاني عن الحرم

﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ . وعلى آله وصحبه وتابعيه وناصري سنته ووارثيه إلى يوم الدين.

(وبعد) فلما كانت السنة النبوية المطهرة هي المصدر الثاني للتشريع، وهي بوابة القرآن وتبيان كتاب الرحمن. وكانت وحيية المعاني نبوية الألفاظ. وكان الاهتمام بها مع القرآن حفظا ودرسا وتبليغا علما وعملا من واجب هذه الأمة في مقام واحد: إذ هما في تضمنهما لشريعة الإسلام صنوان لا يفترقان. «وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» انتصب لتلك المهمة العظيمة الشأن علماء الأمة في كل عصر سلفا وخلفا. يحيون ما اندرس منها وينفون عنها التحريف والتبديل استجابة لما انتدبهم إليه سبحانه بقوله ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وما أنا من المشركين ﴾ . فقاموا بها حق قيام . وكان هذا من

أسباب عزتهم في مختلف العصور، وكان التخلي عن هذا الواجب هو سبب التردّي والخسران، وتداعي الأمم على أهل الإسلام ، فكان من واجب التذكير أن نذكر شيئا من سيرة أولئك الجهابذة العظام ، الذين بذلوا النفس والنفيس في خدمة سنة أبي القاسم، حتى نقوم ببعض ما يجب علينا نحوهم ؛ ولأن ذلك أدعى لنحذو حذوهم، ونعب من زلال فيضهم وواسع علمهم، لننهض من رقدتنا، ونربأ بالإسلام عن ذلتنا.

ولما كان في العصور المتأخرة اهتمام بالغ في البلاد الهندية بعلوم السنة، لا سيما على يد الجهبذ المجدد الهمام المسند العلامة الإمام شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله ونور ضريحه؛ إذ صنف ودرس وخرج القادة وحشد لخدمة السنة من تلاميذه الجم الغفير، وواجه الاستعمار ، وأقام المدارس العلمية التي لا يزال أثرها إلى الآن مفخرة لأهل العلم، كان حرياً أن تتناول تلك الشخصية بالبحث والدرس خصوصاً في مجال خدمة السنة؛ لذلك فإني سأرقم في هذه الورقات ما يتناول هذه الشخصية من تلك الزاوية معتمدة على أهم كتبه الحديثية ، مسمية لهذا البحث: «الإمام شاه ولي الله الدهلوي وجهوده في خدمة السنة النبوية»، راجية من الله التوفيق والسداد إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ونسجت هذا البحث في تمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة :

أما التمهيد : فجعلته في فرعين :

الأول : في عصر الإمام وأحوال العالم الإسلامي آنذاك.

الثاني: في ترجمة الإمام ولي الله الدهلوي ونشأته ونبوغه وشيوخه ومؤلفاته وتلاميذه.

أما المبحث الأول: فجعلته في فرعين:

الأول : تأثير نشأته العلمية في تمكنه من علوم السنة وتبريزه فيها.
الثاني : اهتمامه بالأسانيد والرجال من خلال كتابه «الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد».

أما المبحث الثاني: فجعلته في فرعين:

الأول : منهجه في شرح الموطأ من خلال كتابه «المسوى شرح الموطأ».
الثاني : نماذج من هذا الشرح.

أما المبحث الثالث: منافعته عن حجية السنة وكلامه على أسرار التشريع وفلسفته ومنهجه من خلال كتابه الحجة البالغة.

والخاتمة : في جملة من فوائد بعض مؤلفاته الحديثية الأخرى.



التمهيد

الفرع الأول

عصر الإمام الدهلوي وأحوال العالم الإسلامي آنذاك

ولسد الشيخ الدهلوي في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، وتوفي في الربع الأخير منه. وهذا القرن بدأ فيه تنفيذ المؤامرات الغربية للقضاء على دولة الخلافة العثمانية. وذلك من بعد القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر الهجري بعد ما شهدت أوروبا الثورة الصناعية والزراعية وحاربت كل قديم ونبتت القيم، وفي هذه الأونة كانت الدولة العثمانية في بدايات ضعفها. حيث التدخل الخارجي في شئونها بحجة حماية نصارى الشرق. ثم الضعف العلمي والصناعي إذا قوبل بأوروبا آنذاك.

والمسلمون في تلك الأونة منقسمون إلى أربع دول أكبرها الدولة العثمانية دولة الخلافة، ثم الصفوية، والسعدية بتونس، والغالجية بأفغانستان.

أما عن شبه القارة الهندية على جهة الخصوص فمن المعلوم أن الإسلام دخلها في العقد الأخير من القرن الأول وظل المسلمون يتوغلون حتى حكم المسلمون الهند منذ أن فتحها محمد الغزنوي سنة (٣٩٢هـ = ١٠٠١م). وتتابعت الدول في حكمها فترة بعد فترة. حتى ألفت بمقاليدها إلى الأسرة التيمورية؛ فنهضت بأعباء الحكم. وأقامت حضارة شاهدة على ما بلغته من تقدم وازدهار.

وفي مطلع القرن الثاني عشر كان يحكم دلهي عاصمة الدولة الإسلامية في الهند آنذاك السلطان محيي الدين محمد، أو «رنكزيب عالمكير بن السلطان شاهجهان»، الذي حاول توحيد مملكتهم في الهند إلى أن تم له توحيد الدولة، ثم إنه

هاجم من حوله وأخذ الجزية ، وأقام العدل ونشر الأمن والعلم في الدولة وألغى الضرائب الجائرة، وقد ثار الهندوس عليه لفرض الجزية عليهم، لكن أصر وأعلن أن هذا هو حكم الإسلام وشنت المتظاهرين بالفيلة ودام ملكه أكثر من خمسين سنة قضاها في الحروب وخمد الفتن حتى توفي سنة ١١١٨ هـ وأهل الهند يتبركون بقبره إلى اليوم في «أورنك أباد» ، وبعد موته اعتلى العرش ابنه «بهادور» لكن قامت الحروب بينه وبين إخوته مما جعل الهندوس والسيخ يثورون ويغتزمون الفرص السانحة مما أدى إلى إساءة الأحوال في الدولة حتى تعاقب على الملك في حياة الإمام عشرة ملوك بعد وفاة «عالمكير».

وفي ظل هذه الأجواء المتردية، وانشغال الحكام بأنفسهم، وانصرافهم إلى ملذاتهم، تداعت صيحات مخلصات تنبه القلوب الغافلة، وتوقظ العيون النائمة، وتبث العزم في النفوس الخائرة؛ كي تهب وتستفيق وتقوم بما يجب عليها، وتعيد أمجاد الماضي وتسترد نساماته العطرة، وكان شاه ولي الله الدهلوي أعلى تلك الأصوات، وأكثرها حركة ونشاطا على رأس العلماء في البلد فطلبوا من نادر شاه الصفوي أن يساعدهم في القضاء على هؤلاء المتقاتلين وتوحيد المسلمين، فاستغل الصفوي ذلك أسوأ استغلال فهاجم البلد، فطلب ملكهم الصلح فأمنهم، ولما دخلها غدر بهم فثار عليه الشيخ الدهلوي والعلماء، فما كان منه إلا أن دمر دلهي وقتل منها أكثر من مائة ألف إنسان، فخرج الشيخ الدهلوي يستغيث بحكام المسلمين ويستعين في نصرة المسلمين مستنكراً تلك الأعمال التي يقوم بها الصفويون، لكنه لم يجد أذناً صاغية ولا يداً معينة.

ثم أعقب تلك القلاقل والحروب تدخل الإنجليز بدعوى التجارة وغيرها ، حتى نجحوا في عصر الإمام في إقامة «شركة الهند الشرقية» سنة ١٧٦٣ م . إلى أن رأوا من ضعف الدولة ما خول لهم الاستيلاء على التجارة هناك ثم منه إلى

الاستعمار والتدخل السياسي والعسكري في شئون البلاد، مع انشغال الدولة العثمانية دولة الخلافة عن حماية بلاد الإسلام التابعة لها حتى أصبح الإنجليز هم الحكام الفعليون للهند.

الفرع الثاني

ترجمة الإمام ولي الله الدهلوي

اسمه ونسبه ولقبه وكنيته ومولده: هو الشيخ أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين الشهيد بن معظم بن منصور بن أحمد بن محمود بن قوام الدين بن قاسم ابن كبير الدين بن عبد الملك بن قطب الدين بن كمال الدين بن شمس الدين بن شيرملك بن محمد بن أبي الفتح بن عمر بن عادل بن فاروق بن جرجيس بن أحمد بن محمد بن عثمان بن ماهان بن همايون بن قريش بن سليمان بن عفان ابن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي رضي الله عنه.^(١)

- (١) ذكر الإمام الدهلوي انتسابه لسيدنا عمر كما هو أعلاه في كتابه «الإمداد في مآثر الأجداد» وانظر ترجمته في البائع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني الدهلوي ص ٧٩، وأبجد العلوم للقتوجي ص ٩١٢، وفهرس الفهارس (٢/ ١١١٩ رقم ٦٣٢)، والحطة للقتوجي ص ٦، والأعلام للزركلي (١/ ١٤٩٩)، ومعجم المؤلفين (١٣/ ١٦٩)، ومقدمة المسوى شرح الموطأ، وترجمته للشيخ أحمد راتب عرموش في مقدمة كتاب الإنصاف للمؤلف بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة نقلا عن ترجمة مختصرة له من كتاب الأستاذ ظفر الإسلام خان عن الإمام الدهلوي. وكذلك: عبد الحي الكنائي: فهرس الفهارس والأثبات.
- عبد الله مصطفى المراغي: الفتح المبين في طبقات الأصوليين.
 - عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند.
 - مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلسفة وعلماء الإسلام.
 - فاطمة محجوب: الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية.

ولد رحمه الله في دلهي بالهند في (١٤ من شوال ١١١٤ هـ = ٢ من مارس ١٧٠٣م) في أواخر عهد السلطان أورنجزيب (أحد سلاطين الدولة التيمورية العظام)، ونشأ في بيت علم وصلاح؛ فأبوه كان عالماً كبيراً أنشأ المدرسة الرحيمية في دلهي وسميت على اسمه، وخرّجت تلك المدرسة الكثير من علماء دلهي ، بل كل علماء دلهي في ذلك العصر، وهم الذين انتشروا بعد ذلك في الهند دعاة وقضاة ومعلمين، وكانت تدرس كل العلوم الإسلامية والعربية والعقلية، وكانت العقيدة المعتمدة في التدريس هي عقيدة أهل السنة والجماعة على المذهب الأشعري الذي لا يكفر أحداً من أهل القبلة، مبتعداً عن التجسيم والتعطيل والتشبيه.

وكان لوالد المترجم المشاركة في تدوين ومراجعة «الفتاوى الهندية» على المذهب الحنفي التي عهد إليه بها السلطان عالمكير، وأشرف السلطان على إخراجها، ولم يكن متعصباً للحنفية وكان صوفياً على طريقة الفقهاء ، وورث ذلك منه ابنه صاحب الترجمة.

وسماه أبوه: أحمد، ولقبه وليّ الله ، وأما كلمة الشاه فهي آتية من منصبه ومكانته العلمية والاجتماعية، فهذه الكلمة في الهند تعني الكبير والعظيم والسيد.

تعلم الصبي الصغير في كنف أبيه ، فحفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره وانصرف إلى دراسة اللغتين الفارسية، ثم العربية وعلومها فأتقنها وهو ابن عشر سنين، وتمكنه في اللغة ظاهر جلي لمن نظر في مؤلفاته. وتلقى علوم القرآن والحديث والفقّه على المذهب الحنفي على أكابر علماء الهند ، ونال درجة العالمية في العلوم الشرعية من مدرسة أبيه وهو في الخامسة عشر من عمره، كما درس الطب والحكمة، والمنطق الفلسفة، ومال إلى الزهد والتصوف في هذه الفترة المبكرة، وأمدته هذه الروح الشفافة بطاقة هائلة، وإقبال على العبادة والطاعات،

ونزع الله من قلبه حب الدنيا وزينتها؛ فالتفت القلوب حوله وأطلق عليه الناس شاه ولي الله؛ أي ولي الله الكبير.

جلوسه للتدريس :

ثم لما توفي والده انتقل إليه كرسي التدريس في مدرسة والده «المدرسة الرحيمية» في سنة (١١٣١ هـ = ١٧١٩م) وهي سنة جلوس السلطان محمد شاه على عرش دلهي ، وكان من المعجبين بالإمام، فأهدى إليه حياً كاملاً في منطقة «شاهجهان» ليقسم فيه مدرسته ، وكان من الأعمال التي قام بها ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية التي كانت لغة البلاد الرسمية، وقد قصد بهذا العمل تمكين عامة المسلمين في الهند من أخذ تعاليم الدين من منبعها الأصلي وليس عن طريق المشايخ الذين كانوا يروجون البدع باسم الدين ، فغضب بعض الناس من هذا العمل وحرصوا عليه الدولة مع أن هذا العمل ليس إلا نوع تفسير مختصر للقرآن كما هو معلوم في شأن مثل هذه الترجمة، إلا أن هذا الحدث كان الأول من نوعه .

ولما خلف والده في التعليم والإرشاد ذاع صيته وهو في هذه السن المبكرة يشفع له نبوغه وتمكنه من العلوم الشرعية، فأقبل عليه طلاب العلم يتلقون على يديه الفقه والحديث، وبعد أن أمضى اثني عشر عاماً رحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وبعد أن قضى مناسكها. لازم الحرم المكي وجاور هناك، والتقى بشيوخ مكة وفقهائها ومحدثيها؛ فروى عنهم وتلمذ على أيديهم، وأجازوه براوية الحديث، ثم عاد إلى بلده في أوائل سنة (١١٤٥ هـ = ١٧٢٢م) ليستأنف حياة الدرس والتعليم.

ولما اتخذ الدهلوي من بيته مكاناً - وكذلك مدرسة أبيه - لاستقبال طلابه والتدريس فيه. ضاق عليه لكثرة الطلاب الذين يفدون عليه، فبنى له السلطان محمد

شاد مدرسة كبيرة، وافتتحها بنفسه، واشتهرت باسم دار العلوم، تخرّج فيها أعداد كبيرة من العلماء ممن حملوا علم الشيخ، ونشروه بين الناس.

جهوده الإصلاحية

تفتحت عينا الشيخ والهند تزداد حالتها سوءاً، والحكام يزدادون ضعفاً، والبدع والخرافات تفتك بعقول الناس. والإنجليز يمسون بأزمة الأمور بعد أن رسخت أقدامهم، فتحرّكت نفسه إلى الصدع بالحق، ونصح الحكام، والأخذ بأيدي الناس إلى طريق الإصلاح. ولم ينصرف إلى التأليف والتدريس ويترك الناس حيارى لا دليل لهم. بل توصل بعد دراسته للمجتمع الهندي إلى أن المصيبة الكبرى التي أصيب بها المسلمون هي «السبعة». وأن المجتمع بحاجة إلى تطهير كامل من كل البدع والطقوس الوثنية التي دخلت على الناس بسبب معاشرّة المسلمين للوثنيين من هندوس وسيخ وغيرهم قرونا طويلة.

ومما دعا إليه الشيخ الدهلوي التصوف السني القائم على الاعتقاد والعمل بما جاء في الكتاب والسنة. وجرى عليها جمهور الصحابة والتابعين، وقام بتنقية التصوف من الشوائب. التي لحقت به من الفلسفات غير الإسلامية. وإبراز الجانب الإسلامي فيه.

وقد أثرت جهود الشيخ الإصلاحية في تلامذته، وعلى رأسهم ابنه الشاه عبد العزيز، الذي كان كوالده نابغاً في الحديث والفقّه، فحمل راية أبيه بعد وفاته، ووقف للإنجليز حين أخذوا يستبدون بالأمر. ويقلصون سلطات الحاكم المسلم. وأطلق الكلمة المأثورة: «إنه لا يتصور وجود ملك مسلم بدون نفوذ، إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضوء!»، وهو صاحب الفتوى الشهيرة بأن الهند أصبحت دار حرب لا دار سلام، وعلى المسلمين أن يهبتوا جميعاً للجهاد بعد أن أصبح إمام المسلمين

لا حول له ولا قوة ولا تنفذ أحكامه، والحل والعقد صار بيد الإنجليز المسيحيين..
يعينون الموظفين، ويدفعون الرواتب، ويشرفون على القضاء وتنفيذ الأحكام.

وكان لصيحات مدرسة شاه ولي الله الدهلوي أثر بالغ؛ حيث قاد العلماء للجهاد، وخاضوا غمار الحروب والمعارك لإنقاذ المسلمين من الإنجليز، ومن الشيخ الذين لقوا دعماً من المحتلين، ومن أبرز هؤلاء العلماء أحمد عرفان الشهيد الذي تتلمذ على يد الشاه عبد العزيز الدهلوي وأخيه عبد القادر ابني ولي الله الدهلوي.

شيوخه

- أولهم والده ، ثم درس على يد الشيخ محمد أفضل السيالكوتي الدهلوي، وقرأ عليه الحديث بسنده عن الشيخ عبد الله بن سالم البصري المكي ومن شيوخه أيضاً:
- ١- الشيخ أبو طاهر المدني الكردي بن العلامة إبراهيم الكردي، قرأ عليه صحيح البخاري كاملاً، وطالع عليه رسائل الشيخ إبراهيم الكردي.
 - ٢- الشيخ وفد الله المكي بن الشيخ محمد سليمان المغربي، وقرأ عليه موطأ الإمام مالك برواية يحيى بن يحيى، وتأثر به وبطريقته، ولذلك أثر واضح في كتابه المسوي.
 - ٣- الشيخ تاج الدين القلعي المكي الحنفي ، سمع منه أطرافاً من صحيح البخاري والكتب الستة وموطأ الإمام محمد وكتاب الآثار ومسند الدارمي.

تلاميذه

- أما تلاميذه فإنهم كثيرون جداً؛ لأنه درس في مدرسة أبيه في شبابه إلى وفاته، غير من أخذ عنه في رحلاته، وذكر من هؤلاء :
- ١- أبناؤه عبد العزيز ورفيع الدين وعبد القادر وعبد الغني، وأبناؤه هؤلاء خلفوه أيضاً في المدرسة وكلهم علماء.

- ٢- الشيخ محمد عاشق الدهلوي ، وهو من خواص تلاميذه.
- ٣- الشيخ محمد أمين الكشميري، وكان له تأثير كبير في كشمير.
- ٤- السيد مرتضى الزبيدي ، صاحب تاج العروس وإتحاف السادة المتقين.
- ٥- الشيخ جار الله بن عبد الرحيم اللاهوري المدني ، وله أولاد في المدينة حتى الآن.
- ٦- الشيخ محمد أبو سعيد البريلوي (جد السيد أحمد الأمير الشهيد لأمه).
- ٧- الشيخ رفيع الدين المراد أبادي.
- ٨- الشيخ محمد بن أبي الفتح البركلامي.
- ٩- الشيخ محمد معين السندي . العالم المشهور الذي تعلم عليه الشيخ محمد حياة السندي، والشيخ محمد هاشم السندي.
- ١٠- الشيخ القاضي الكبير ثناء الله المظهري الباني بتي الذي يقال له بيهقي عصره^(١).

مؤلفات الشيخ

بارك الله في حياة الشيخ فدرس وألف وجاهد وارتحل. وترك ذرية طيبة. حملوا العلم. وقادوا الجهاد. وتعلمذ عليه منات من التلاميذ في الحديث؛ فأحيوا السنة بعد أن كادت تموت في الهند. ورزقه الله سعة في الوقت؛ فترك مؤلفات عظيمة بلغت أكثر من ٥٠ كتابا من أشهرها:

- ١ - أجوبة عل ثلاث. مسائل طبع في الهند ١٣١٢ هـ.
- ٣ - البذور البازغة . في الكلام والتصوف. وكتبه بالعربية.
- ٤ - الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين.

^١ - مقدم المسوى ص ٩

- ٥ - الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد (وهو ثبته ومروياته) وفي فوائد مهمة، مطبوع بالهند.
- ٦ - الأربعون حديثاً (بالأشراف في غالب حديثها).
- ٧ - إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، في التاريخ. بالفارسي لكنه مترجم إلى العربية ومطبوع في الهند.
- ٨ - الزهراوين (تفسير سورة البقرة وآل عمران).
- ٩ - أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم.
- ١٠ - أطراف القدس في التصوف، بالفارسية، وترجم إلى العربية، طبع مراراً في الهند.
- ١١ - الإمداد في مآثر الأجداد.
- ١٢ - الانتباه في سلاسل أولياء الله، وأسانيد وارثي رسول الله، في التصوف بالفارسي، ومترجم إلى العربية.
- ١٤ - الإصاف في بيان سبب الاختلاف (بين الفقهاء والمجتهدين)، وهو يتناول مباحث في أصول الفقه ونشأة المذاهب الفقهية وتعددتها في الفقه الإسلامي.
- ١٥ - تأويل الأحاديث (في تفسير قصص الأنبياء) بالعربية مع ترجمة هندية، وهو مطبوع قديماً.
- ١٦ - تراجم أبواب البخاري وشرحها، كتبه بالعربية.
- ١٧ - التفهيمات الإلهية، وهي مجموعة مقالات ورسائل متنوعة، طبع بعضها قديماً.
- ١٨ - تنوير العينين في رفع اليدين. طبع في الهند.
- ١٩ - حجة الله البالغة - وهو أشهر كتبه - في أسرار الحديث وحكم التشريع، وقد طبع في الهند سنة (١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م)، ثم طبع في مصر بعد ذلك

- في سنة (١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م)؛ وهو ما يدل على اتصال الحركة العلمية في مصر بغيرها من البلاد الإسلامية.
- ٢٠ - الخير الكثير، كتبه بالعربية أيضا، ويعتبر تفسيراً لكتاب حجة الله بمسلك صوفي، وهو مطبوع بمصر بمكتبة القاهرة.
- ٢١ - ديوان الشعر العربي (جمعه ابنه عبد العزيز).
- ٢٢ - رسائل الدهلوي ، طبع في مصر. لكن لم أعثر عليه.
- ٢٣ - رسالة دانشمندي. بالفارسي، وهو كتاب في اصول التعليم طبع في الهند.
- ٢٤ - السطعات ، وهو أيضا من كتبه المهمة، لكن كتبه بالفارسية، وطبع في الهند وعثرت على نسخة منه.
- ٢٥ - السر المكتوم في أسباب تدوين العلوم.
- ٢٦ - شفاء القلوب (في الحقائق والمعارف).
- ٢٧ - عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، كتبه بالعربية وترجم إلى الأوردية وكذلك يعتبر هذا الكتاب من أهم ما كتب.
- ٢٨ - فتح الخبير بما لا يد من حفظه في التفسير. كتبه بالعربية، وهو مطبوع في الهند، وطبع في مصر بهامش سفر السعادة للفيروزآبادي.
- ٢٩ - فتح الرحمن بترجمة القرآن، وهو أول ترجمة فارسية للقرآن، ويعتبر تفسيراً مختصراً.
- ٣٠ - الفوز الكبير، بالفارسية، وعربه بعض تلاميذه، وهو في قواعد التفسير، وطبع أيضا بهامش سفر السعادة للفيروزآبادي.
- ٣١ - الفتح المنير (في غريب القرآن).
- ٣٢ - الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين.
- ٣٣ - فيوض الحرمين (في المشاهدات والمعارف الروحية).
- ٣٤ - قرّة العين في تفضيل الشيخين (أبي بكر وعمر)، وهو رد على الشيعة.

٣٥ - القول الجميل في بيان سواء السبيل، في التصوف، لكنه يرد على كثير من طرق المتصوفة، وهو كتاب مهم جدا وهو مطبوع في الهند.

٣٦ - اللحاحات ، مخطوط.

٣٧ - المسوى من أحاديث الموطأ. وهو شرح موجز لموطأ مالك ، وقد طبع في الهند ثم في مصر ثم في بيروت. وهو كتاب مهم مشهور متداول.

٣٨ - المصطفى شرح الموطأ، وهو ترجمة لكتابه المسوى.

٣٩ - المقدمة السنية في انتصار الفرقة السنية.

٤٠ - المكتوب المدني (في حقائق التوحيد).

٤١ - المكتوبات (، وهي رسائل جمعها الشيخ الحافظ محمد رحيم بخش الدهلوي في كتابه : حياة ولي).

٤٢ - النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر.

٤٣ - الوصية ، كتبه بالفارسية، وهو مهم جدا، طبع في الهند.

وهذه هي الكتب التي عثرنا عليها أو على أسماء بعضها، وقيل إن مؤلفاته

تزيد على الخمسين، وسوف نقتصر في الدراسة على المتداول منها وهو كفيلا
بتمثيل آراء الإمام ومنهجه في خدمة السنة.

وبعد حياة حافلة بجلال الأعمال توفي الشيخ في (٢٦ من المحرم ١١٧٦هـ

= ١٧ من أغسطس ١٧٦٢م). تاركا أربعة من أولاده العلماء هم: شاد عبد العزيز

الذي قام مكانه في العلم والعمل. وشاد رفيع الدين، وشاد عبد القادر. وشاد عبد

الغني، ومخلفاً ذكرى عطرة لا يزال شذاها يفوح حتى الآن. وقد أتى عليه وعلى

جهوده العلماء؛ فقال عنه عبد الحي الكناني صاحب فهرس الفهارس: أحيا الله به

وبأولاده وبأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند بعد مواتهم، وعلى كتبه

وأسانيده المدار في تلك الديار.

المبحث الأول

الفرع الأول

تأثير نشأته العلمية في تمكنه من علوم السنة وتبريزه فيها

إن الناظر في تاريخ الإمام الدهلوي يرى أن نشأته التعليمية يغلب عليها الطابع الحديثي الفقهي ، وذلك من خلال الشيوخ التي تتلمذ عليها أو من خلال الكتب التي درسها وتعلم منها، فموارده رحمه الله نبوية حديثية ، كذلك مؤلفاته التي صب فيها جل اهتمامه وصرف فيها غالب وقته نجدها أيضا في معظمها حديثية.

فمن أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم وأكثرَ منهم بعد والده هو الشيخ محمد أفضل السالكوتي إمام زمانه في علم الحديث، فأخذ عنه الحديث بسنده إلى الشيخ عبد الله بن سالم المكي. ثم إنه قصد الحجاز سنة ١١٤٢ هـ وأمضى في الحجاز سنتين تتلمذ خلالهما على علماء عديدين كان من أشهرهم أبو طاهر محمد بن إبراهيم المدني الذي قال في الإمام الدهلوي: «يسند عني اللفظ وكنت أصحح المعنى منه»، كما في البيان الجنى. وقرأ عليه الكثير من كتب الحديث.

ثم إنه قرأ الموطأ على الشيخ وفد الله والشيخ تاج الدين القلعي، كما قرأ على القلعي الكثير من كتب المتون الحديثية وغيرها. وهذا يوضح لنا جليا أن معظم اهتمامات الشيخ العلمية كانت منصرفة للحديث النبوي الشريف.

وإليك بعض مؤلفاته في هذا الشأن التي أوصلنا عناء البحث إليها:

- ١ - الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين.
- ٢ - الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد (وهو ثبته ومروياته) وفيه فوائد مهمة، وهو مطبوع .
- ٣ - الأربعون حديثاً (بالإشراف في غالب حديثها).
- ٤ - تأويل الأحاديث (في تفسير قصص الأنبياء) بالعربية مع ترجمة هندية، وهو مطبوع قديماً.
- ٥ - تراجم أبواب البخاري وشرحها، كتبه بالعربية.
- ٦ - حجة الله البالغة_وهو أشهر كتبه_ في أسرار الحديث وحكم التشريع.
- ٧ - الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين.
- ٨ - المسوى من أحاديث الموطأ. وهو شرح موجز لموطأ مالك . وقد طبع في الهند ثم في مصر ثم في بيروت.
- ٩ - المصفى شرح الموطأ، وهو ترجمة لكتابه المسوى.
- ١٠ - النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر.

لكنك مع هذا لا تستطيع أن تقول فيه إذا نعته بما يدل على منزلته في العلم أنه محدث فحسب إلا أنك تجد نفسك تقول فيه كما قيل في الإمام الطبري: إنه كان كالفقهاء الذي لا يعرف إلا القرآن . وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه . وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو. وكالمتكلم الذي لا يعرف إلا الكلام، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب. وكذا يقال في شيخنا الإمام الدهلوي.

وهو مع كل هذا يختار منهجاً وسطاً في كتبه الحديثية يعتمد على إيصال العلم للناس بطريقة سهلة ، فتراث يؤولف كتاباً مختصراً في سيرة النبي ليعرف بصاحب السنة ، ثم ألف كتاباً في سيرة الخلفاء. ثم ألف بعد ذلك كتاباً في بيان أسانيد وما

يحتاج إليه في ذلك من علم مصطلح الحديث فألف كتابه « الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد»، ثم عمد إلى كتاب من أهم كتب السنة وهو الموطأ وما أدراك ما الموطأ فشرحه شرحاً مانعاً أقرب إلى الاختصار في كتابه «المسوى» وهو بالعربية، ثم في «المصفي» وهو بالفارسية. ثم أردف ذلك بخدمة صحيح البخاري يرد فيه على ما أشكل من الأحاديث في كتابه «تأويل الأحاديث» ثم أتبعه بكتاب «شرح تراجم أبواب البخاري». ثم كتب في حجية السنة وبيان أسرار التشريع كتابه الذي عم الآفاق «الحجة البالغة». ثم ترادفت مؤلفاته رحمه الله في خدمة السنة كما ذكرنا منها الكثير من قبل وهو في ذلك المسند المحدث المتخصص البصير بأدواء عصره وداءاته.

الفرع الثاني

اهتمامه بالأسانيد والرجال من خلال كتابه «الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد»

أول ما يواجهنا إذا نظرنا في هذا الكتاب هو أنه ما حمل الشيخ على تأليفه إلا داعية العصر وواقع المسلمين فتراه وكأنه يتفطر أسى من تقهقر هذا العلم وهو يقول: « يقول خادم حديث النبي صلى الله عليه وسلم المفتقر إلى رحمة ربه الكريم أحمد المعروف بولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي - أحسن الله تعالى إليه وإلى مشايخه و أبويه - هذه رسالة مسماة بالإرشاد إلى مهمات علم الإسناد حداني على تأليفها احتياج أهل العصر إلى مثلها ، فإن هذا العلم صار في عصرنا نسياً منسياً، وكاد أهل العصر لجهلهم بفضله يتخذونه سُخْرِيًّا»⁽¹⁾.

¹ (انظر «الإرشاد إلى مهمات الإسناد».

ثم يقول في المقدمة مع قلة ألفاظه فيها ما يضم فضيلة الإسناد وأهميته وكأنه يكتب كتاباً جامعاً يعد ليكون منهجاً علمياً في طرق البحث وتلقي العلوم فتجده يقول:

«كل شيء تعلق به علمك من جهة إخبار غيرك عنه لابد بينك وبينه طريق إما مخبر واحد أو أكثر من واحد ولا بد لكل واحد من وجه في تحمل الخبر عن صاحبه من سماع و عرض وكتابة ونحو ذلك فمتى بينت الطريق ووجه التحمل فقد أسندت ومتى تركت البيان فقد أغفلت وغرضنا في هذه الرسالة ذكر الطرق التي منها وصلت إلينا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وفائدة حفظ الإسناد بقاء الشريعة المحمدية - على صاحبها الصلاة والتسليمات - المشتمة على سعادة الدارين وذلك ظاهر لمن تأمل فإننا لم نشاهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم نسمع منه بلا واسطة ولم تصل أحاديثه إلا بالوسائط سواء كان هذا الوصل من جهة انتساخ النسخ من مثلها أو من استماع حديث من مخبره أو نحو ذلك ، وهذه كلها أنواع الإسناد فلو لم يكن الإسناد أصلاً لم تبقى الشريعة وإخبار من ليس بصدوق أو ليس بضابط لا يعتمد عليه وكذا النسخة التي لم تصحح على أصلها ولم يعرف صحة أصلها لا يعتمد عليها و التحمل منه ما هو قطعي ومنه ما هو دخله الوهم فإذا طلبت المعتمد من الأخبار لا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة الرجال وأحوالهم وصنيع تحملهم فهذا هو علم الإسناد».

ثم يأتي بعد ذلك مبينا سبب تشعب الأسانيد واختلاف درجاتها وتعدد طرقها فيقول:

«وحديث النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب في العصر الأول ثم ظهر الاهتمام بكتابه بعد المائة وكمل التصنيف بعد المائتين وهذا هو الذي اقتضى

تشعب الأسانيد وانقسام الحديث إلى مستفيض ومشهور وصحيح وحسن وضعيف ومرسل وأحوج إلى النظر في الاعتبار والشواهد واقتضى كون الإسناد خاصاً بهذه الأمة والله أعلم» .

ثم يبدأ بعد ذلك بتعديد شيوخه الذين روى عنهم كتب السنة وقرأها عليهم دراية ورواية فيقول:

«قد اتصل سندي والحمد لله بسبعة من المشايخ الجلة الكرام الأئمة القادة الأعلام من المشهورين بالحرمين المحترمين المجمع على فضلهم من بين الخافقين الشيخ محمد بن العلاء الدين البابلي ، والشيخ عيسى المغربي الجعفري ، والشيخ محمد بن سليمان الردني المغربي ، والشيخ إبراهيم بن حسن الكردي المدني ، والشيخ العجمي المكي ، والشيخ أحمد بن محمد النخلي المكي والشيخ عبد الله بن سالم البصري ثم المكي ولكل واحد منهم رسالة جمع هو فيها أو جمع له فيها أسانيده المتنوعة في علوم شتى».

وروى عن هؤلاء العظام: صحيح البخاري ومسلم وباقي الكتب الستة، ومسند الدارمي، ومسند الشافعي، ومسند أحمد، ومسند أبي يعلى. ومسند أبي داود الطيالسي، وصحيح ابن حبان، وسنن الدارقطني، ومستدرک الحاكم، وحلية أبي نعيم، والسنن الكبرى والصغرى للبيهقي، وتصانيف الخطيب البغدادي، ومسند الفردوس، ومسند الشهاب القضاعي، ومسند أبي حنيفة للحارثي، ومسند أبي حنيفة لابن خسرو، والمعجم الكبير والأوسط والصغير للطبراني، وعمل اليوم والليلة لابن السني، وكتاب التوحيد لابن منده، ومسند الحارث بن محمد بن أبي أسامة، وكتاب الشريعة للأجري، شرح السنة والمصابيح ومعالم التنزيل للبغوي، والوسيط تفسیر الواحدی، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وغنية الجيلاني، وجامع الأصول لابن الأثير، والعمدة وكتاب اعتقاد الشافعي للمقدسي، ومشارك الأنوار للصنعاني،

والترغيب والترهيب للمنذري، والمختارة للحافظ ضياء الدين المقدسي. كل ذلك بالأسانيد المتصلة إلى أصحابها.

وانتهى إليه رحمه الله إسناده المسندين في علم الحديث في البلاد الهندية فكان القطب الذي تدار عليه رحاها والغصن الذي تجنى منه ثمارها ، فلله دره من إمام.



المبحث الثاني

الفرع الأول

منهجه في شرح الموطأ من خلال كتابه المسوى شرح الموطأ

يعد كتاب "الموطأ" للإمام مالك من أصح كتب الفقه وأشهرها، وأقدمها وأجمعها، وقد اتفق السواد الأعظم من الملة على العمل به والاجتهاد في روايته ودرايته والاعتناء بشرح مشكلاته، ومعضلاته، والاهتمام باستنباط معانيه وتشديد مبانيه، ومن تتبع مذاهبهم على أن "الموطأ" عدة مذهب مالك وأساسه، وعمد مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيه، وهذه المذاهب بالنسبة للموطأ كشروح للمتون، وهو منها بمنزلة الدوحة من الغصون، وأن الناس وإن كانوا من فتاوى مالك في رد وتسلیم، وتنكيت وتقويم فما صفا لهم المشرب، ولا تأتي لهم المذهب، إلا بما سعى في ترتيبه. واجتهد في تهذيبه، وقال الشافعي لذلك: "ليس أحد أمن علي في دين الله من مالك وعلم أيضاً أن الكتب المصنفة في السنن كصحيح مسلم، وسنن أبي داود، والنسائي، وما يتعلق بالفقه من صحيح البخاري وجامع الترمذي، مستخرجات على الموطأ..."

وبالنظر لأهمية هذا الكتاب فقد اهتم العلماء به تدریساً وشرحاً وممن أقبل عليه إمامنا الدهلوي. فقد رتب أحاديثه ترتيباً يسهل تناوله. وترجم على كل حديث بما استنبط منه جماهير العلماء وضم إلى ذلك من القرآن ما لا بد للفقيه من حفظه، ومن تفسيره ما لا بد له من معرفته. ويذكر في كل باب مذهب الشافعية والحنفية إذ هم الفئتان العظيمتان اليوم. وهم أكثر الأمة، وهم المصنفون في أكثر الفنون الدينية وهم القادة الأئمة. ولم يتعرض لمذهب غيرها تسهيلاً على حاملي الكتاب ورغبة

فـيـمـا هـو الأهم في الباب، إلا في مواضع النكت؛ ولأن مذهب الإمام أحمد مع جلالته إلا أنه لم يكن في شهرة الثلاثة في تلك الآونة.

ويبين الإمام في هذا الشرح ما تعقب به الأئمة على مالك بإشارة لطيفة حيث كان التعقب بحديث صحيح صريح، ويبين ما مست إليه الحاجة في معانيه اللغوية من شرح غريب، وضبط مشكل. أو معانيه الفقهية من بيان علة الحكم وأقسامه، وتأويل الحديث عند الفريقين ونحو ذلك. ولم يتعرض لذكر من أخرج الحديث من أصحاب الأصول الستة إلا في مواضع يسيرة لأن العلماء قد فرغوا منه.

وقد اقتضى الحال من المصنف في بعض المواضع أن يفرق الحديث في بابين فراعى في ذلك شرطه المعتبر عند أهله، وفي بعضها أن يذكر حديثاً واحداً مرتين: فإن كان بإسنادين فيها، وإلا ساق الإسناد في موضع وقل الموضع الآخر: وقد استوعب أحاديث الموطأ والتي بلغت ١٩٣٠ حديثاً، وآثاره في هذه النسخة، وما كان من قوله من السنة كذا وكان استنباطاً منه أتى من ذلك بما ذهب إليه إحدى الطائفتين ولم يتعرض لما سوى ذلك من مواضع.

القيام بنشر الحديث الشريف والسنة المشرفة والدعوة إلى التوفيق بين الحديث والفقه والجهود في سبيله

أهمية الحديث الشريف والحاجة إليه في كل عصر ومصر :

لقد قام الإمام الدهلوي في شبه القارة الهندية وفي عهدها الأخير - حقيقة - (الذي يمتد من أواسط القرن الثاني عشر الهجري إلى هذا الحين) بمأثرة عظيمة، وهي القيام بنشر الحديث النبوي الشريف وترويجه وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفن الجليل، ومؤلفاته في هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق، وتعتبر فصلاً مضيئاً مهماً في صحيفة تجديده وكتاب حياته والتي غلبت على فضائله ومجالاته العلمية وخدماته الدينية الأخرى حتى غدا «المحدث الدهلوي» جزءاً من اسمه، وعنواناً لتعريفه ووصفه، وجرى على ألسنة الناس وأقلامهم «الإمام ولي الله المحدث الدهلوي» وأصبح ذلك علمه المعرف الكامل.

ولكن قبل أن نتعرض لتاريخ هذه المأثرة الجليلة وبيانها - بتفصيل - يلزمنا لإدراك جلالة هذا العمل وخطورته أن نعلم مكانة الحديث الشريف في نظام الدين وإطار الشريعة الإسلامية، والجهود المبذولة للحفاظ على الإسلام في صورته الصحيحة، وتكوين المناخ والبيئة الإسلامية والحفاظ عليها، ولماذا يجب القيام بنشره وصيانته في كل عصر وكل بلد (يعيش فيه المسلمون) وما يحمل الغفلة عنه والجهل به أو إنكاره من أخطار وما يحتوي عليه من مضار، وما هو الفراغ الهائل الذي يحدثه انقراض هذا العلم أو تجاهله والتغافل عنه في أي بلد أو في أي عصر، والذي لا يملأ بشيء آخر.

إن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لابد منها في السنن الإلهية ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً^(١) ، «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»^(٢)

شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة في الإصلاح والتجديد:

ويشهد بهذه الحقيقة تاريخ الإسلام والمسلمين نفسه، فكلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتهم بها، على كثرة وجود الدعاة إلى الله، والمشتغلين بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق، والزهدي في الدنيا والعمل بالسنة، وطالت هذه الفترة، غزت المجتمع الإسلامي - الزاخر بأصحاب الاختصاص في العلوم الإسلامية، المتبحرين في العلوم الحكيمة والأدبية، وفي عهد غلبة الإسلام وحكم المسلمين - بدع طريفة وتقاليد عجمية، وأعراف دخيلة، حتى يكاد يكون نسخة من مجتمع جاهلي، وصدقت النبوة المحمدية والحديث الصحيح:

«لتركبسن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع»^(٣) ، وخفت صوت الإصلاح وخبا مصباح العلم.

ومن شاء فليستعرض الوضع الديني وواقع حياة المسلمين في القرن العاشر الهجري في الهند، القرن الذي كادت صلة الأوساط الدينية والعلمية في شبه القارة

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٣) رواه الحاكم.

الهندية تنقطع عن علم الحديث الشريف ومصادر السنة الصحيحة، وكانت تعيش في عزلة عن مراكز العلم الديني، وتدرّس الحديث الشريف، (كالحجاز واليمن، ومصر والشام) وأصبحت مقتصرة على كتب المذهب وشروحها وتدقيقاتها وكتب الأصول والحكمة، كيف فشّت فيها البدع وعمّت المنكرات، واستحدثت أشكال متنوعة للعبادات والقربات^(١).

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلفته الفلسفات، والتجارب المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب «جواهر خمسة» للشيخ محمد غوث الكوالياري الذي ذاع صيته في عصره، وحصل له القبول العظيم عند الناس، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية، وتجارب الشيخ الكوالياري الشخصية، ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتمدة، فتجد في هذا الكتاب المذكور - أنفأ - «صلاة الأحزاب» و «صلاة العاشقين» و «صلاة تنوير القبر» والصلوات المخصوصة بالأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها التي لا أصل لها في السنة، ولا أثر لها في الحديث»^(٢).

ولو لم تكن كتب الحديث في متناول أيدي العلماء المسلمين، ولم تتيسر لهم هذه الوسيلة المعتمدة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسنن، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيمية (م ٧٢٨هـ) إلى عهد الإمام الدهلوي (م ١١٧٦هـ) للعلماء المصلحين والدعاة إلى الدين الخالص، ولم يظهر المصلحون والمجددون حملة رأيه التجديد والإصلاح وتصحيح العقائد، وإزالة التقاليد الجاهلية.

(١) «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته»، ص : ٢٦-٣٠.

(٢) انظر «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج : ٣، ص : ٢١٨.

اقرأ تراجم علماء أفغانستان (كابل وهرات وغزنين) في القرنين العاشر والحادي عشر، والى نظرة على كتبهم ومؤلفاتهم، فلما تجد عليها مسحة الدفاع عن السنة والرد على البدعة والتحقيق والتنقيح في المسائل، وإذا بشخصية العلامة علي بن سلطان بن محمد الهروي (م ١٠١٤هـ) المعروف بملا علي القاري، تظهر على الساحة، الذي سافر إلى الحجاز وقرأ على كبار أساتذتها ومحدثيها الأجلة كتب الحديث ونبغ فيها، وتتجلى هذه المسحة الظاهرة في شروحه لكتب الفقه والحديث وترجيحه للمسائل وردده - بصراحة ووضوح - على بدع عصره ومحدثاته، وقد أدت به دراسته وبحثه وقوله بالحق وإنصافه إلى أنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية وشهد بأنه كان من أكابر أهل السنة والجماعة وأولياء الأمة^(١).

وقد كانت هذه الحال في عدد من البلدان العربية كالعراق والشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش^(٢).

علم الحديث والعرب

إن من حقائق فلسفة التاريخ الإسلامي أن البلاد التي كان العرب حملة الإسلام إليها، وإليهم يرجع الفضل في انتشاره فيها. انتشر فيها علم الحديث الشريف مع انتشار الإسلام وازدهر. إذ أنه كانت هنالك صلة قوية ومناسبة خاصة بين هذا العلم وطبيعة العرب وقوة حفظهم وحياتهم العملية وواقعيتهم وصلتهم العميقة بذات النبي فحيثما حلوا وساروا حملوا معهم علم الحديث. وظهرت العناية به في عهد سيادتهم وتأثيرهم ونفوذهم في قوة ووضوح. وكانت حركة تدريسه والتصنيف والتأليف في مختلف جوانبه قائمة على قدم وساق. لقد كان هذا حال اليمن وحضرموت ومصر

(١) انظر «المراقبة» شرح المشكاة، ج: ٤، ص: ٢٧.

(٢) انظر رسالة المؤلف (دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانتها).

والشام والعراق، وشمال أفريقيا والأندلس، وولاية كجرات في الهند نفسها، وهو مثال ودليل على ما ذكرناه في صلة العرب بالحديث، فقد أنتجت كجرات أمثال الشيخ علي المتقي البرهانپوري مؤلف «كنز العمال» (م ٩٧٥هـ) والعلامة محمد طاهر الفتني صاحب «مجمع بحار الأنوار» (م ٩٨٦هـ) من المحدثين الأجلة الكبار، وذلك كما سبق لأن صلة كجرات بالحجاز كانت أقوى وأكثر بالنسبة إلى سائر الولايات الهندية، وكان العلماء العرب - دائماً - يؤمنونها ويترددون إليها.

أما البلاد التي انتشر فيها الإسلام بأيدي العجم، فليس شأنها في هذا الأمر كذلك، فقد حكمت في الهند أسر تركية الأصل أو أفغانية الأصل، وقام فيها بنشر الإسلام وتبلغه والدعوة إليه أولئك المشائخ والعلماء الدعاة الذين كان معظمهم من أصول عجمية أو من أبناء البلاد العجمية، لاسيما إيران وتركستان ثم لما جاء عهد التدريس وإنشاء المدارس وترتيب المناهج الدراسية في الهند، كانت هي قد تأثرت - كلياً - بالفضلاء العجم و «حكماء إيران» وطبعت بطابعهم، وقد قدمنا في الباب الأول أن إيران التي أنجبت أساطين الحديث لما قامت فيها الحكومة الصفوية، وأعلنت المذهب الشيعي مذهبها الرسمي فيها (وقد وقع ذلك في بداية القرن العاشر الهجري) انقطعت صلتها بالحديث الشريف لذلك لم يكن في الهند - بعد النفوذ الإيراني الثقافي - مجال للشعور بأهمية الحديث وجلالة خطره وعظمته، والمسابقة في القيام بنشره، بل بالعكس من ذلك كلما كان تأثير إيران يتضاعف على الأوساط العلمية في الهند، تزداد معها قلة العناية واللامبالاة بالحديث الشريف، وقد بلغ ذلك في عهد الإمام الدهلوي أوجه وقمته.

ازدهار علم الحديث وانحطاطه في الهند :

نقدم هنا- لاستعراض تاريخ الازدهار والانحطاط الذي مر به علم الحديث في الهند باختصار، مقتطفات من كتاب العلامة عبدالحى الحسنى - رحمه الله- «الثقافة الإسلامية في الهند»، وقد جاءت فيها عصاراة الدراسة لمنات الصفحات وخلاصة هذا الموضوع: يقول المؤلف:

«ولما انقرضت دولة العرب من بلاد السند، وتغلبت عليها الملوك الغزنوية والغورية، وتتابع الناس من خراسان وما وراء النهر صار الحديث فيها غريباً كالكبريت الأحمر، وعديماً كعنقاء المغرب، وغلب على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية، وفي العلوم الدينية الفقه والأصول، ومضت على ذلك قرون متطاولة حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان، والإضراب عن علوم السنة والقرآن، إلا ما يذكر في الفقه على القلة، وكان قصارى نظرم في الحديث في مشارق الأنوار للصفغاني، فإن ترفع أحد إلى مصابيح السنة للبغوي أو إلى مشكاة المصابيح ظن أنه وصل إلى درجة المحدثين، وما ذلك إلا لجهلهم بالحديث، ولذلك تراهم لا يذكرون هذا العلم، ولا يقرءونه ولا يحثون عليه ولا يجذبون إليه ولا يعرفون كتبه ولا يعلمون أهله، والقليل منهم كانوا يقرءون المشكاة لا غير، وهذا على طريقة البركة لا للعمل به، والفهم له، وعمدة بضاعته من الفقه على طريقة التقليد دون التحقيق إلا ما شاء الله تعالى في أفراد منهم، ولذلك كثرت فيهم الفتاوى والروايات وتركت النصوص المحكمات، ورفض عرض الفقه على الحديث وتطبيق المجتهادات بالسنة المأثورة عن النبي المعصوم المأمون صلى الله عليه وسلم».

حتى من الله - تعالى- على الهند بإفاضة هذا العلم، فورد به بعض العلماء في القرن العاشر، كالشيخ عبدالمعطي بن الحسن بن عبدالله باكثر المكي المتوفى

بأحمد آباد سنة ٩٨٩هـ والشيخ الشهاب أحمد بن بدر الدين المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ ، والشيخ محمد بن أحمد بن علي الفاكهي الحنبلي المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ ، والشيخ محمد بن محمد عبدالرحمن المالكي المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩١٩هـ ، والشيخ رفيع الدين الجشتي الشيرازي المتوفى بأكبر آباد سنة ٩٥٤هـ ، والشيخ إبراهيم بن أحمد بن الحسن البغدادي، والشيخ ضياء الدين المدني المدفون بكاكوري ، والشيخ يهلول البدخشي، والخواجة ميركلان الهروي المتوفى بأكبر آباد سنة ٩٨١هـ ، وخلق آخرون.

ثم وفق الله سبحانه وتعالى بعض العلماء من أهل الهند أن رحلوا إلى الحرمين الشريفين، وأخذوا الحديث وجاءوا به في الهند، وانتفع بهم خلق كثير. كالشيخ عبدالله بن سعد الله السندي، والشيخ رحمة الله بن عبدالله بن إبراهيم السندي المهاجرين إلى الحجاز. فإنهما قدما الهند ودرسا بكجرات مدة طويلة ثم رجعا إلى الحجاز. والشيخ يعقوب بن الحسن الكشميري المتوفى سنة ١٠٠٣هـ ، والشيخ جوهر الكشميري المتوفى سنة ١٠٢٦هـ ، والشيخ عبد النبي بن أحمد الكنكوهي، والشيخ عبدالله بن شمس الدين السلطانپوري، والشيخ قطب الدين العباسي الكجراتي، والشيخ أحمد بن إسماعيل المندوي، والشيخ راجح بن داود الكجراتي، والشيخ عليم الدين المندوي، والشيخ المعمر إبراهيم بن داود المنكوري المدفون بأكبر آباد، والشيخ محمد بن طاهر بن علي الفتني صاحب «مجمع البحار» والسيد عبد الأول بن علي بن العلاء الحسيني وغيرهم^(١).

ويزيد مؤلف «الثقافة الإسلامية في الهند» قائلا:

(١) ص: ١٣٥-١٣٧.

مأثرة الشيخ عبد الحق الدهلوي

ثم جاء الله سبحانه وتعالى بالشيخ عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ ، وهو أول من أفاض الحديث على سكان الهند، وتصدى للدرس والإفادة بدار الملك دهلي، وقصر همته على ذلك وصنف وخرج ونشر هذا العلم على ساق الجد، فنفع الله به وبعلمه كثيراً من عباده المؤمنين، حتى قيل إنه أول من جاء بالحديث بالهند، وذلك غلط كما عملت.

ثم تصدى له ولده الشيخ نور الحق المتوفى سنة ١٠٧٣هـ وكذلك بعض تلامذته وأولاده كشيخ الإسلام شارح البخاري، وولده سلام الله صاحب «المحلى» و«الكاملين»^(١).

وقد أصاب البروفيسور خليق أحمد نظامي في قوله:

وعلى كل فإن العهد الذي بدأ فيه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي دروسه في الحديث الشريف، كان قد طوي - إذ ذاك - بساط هذا العلم الشريف في شمالي الهند، وإنه قد أشعل في هذا الوسط المظلم الضيق شمعة جذبت إليها الناس من أنحاء نائية بعيدة، فالتفوا حولها وتهافتوا عليها تهافت الفرائش على النور وبدأ نشاط جديد، لدروس الحديث الشريف في شمالي الهند، وانتقل بذلك مركز العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من كجرات إلى دلهي^(٢).

(١) «الثقافة الإسلامية في الهند»، ص: ١٣٧ (الطبعة الثامنة مجمع اللغة العربية دمشق)

(٢) حياة الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي، ص: ٤٣.

الحاجة إلى مجدد :

لقد صرفت العناية إلى الحديث الشريف بإخلاص الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي وصدقه وجهوده المباركة، وقد أثار رغبة قوية وحركة جديدة إلى مطالعته ودراسته وتدريسه، وشرحه وتحشيطه، وكان من المتوقع أن أخلافه وأفراد أسرته، - الذين كانوا بدورهم محدثين ومدرسين ومؤلفين - يستمرون بهذه الجهود حتى يأخذ هذا الفن الشريف مكانه اللائق في الأنظمة التعليمية، والمناهج والمقررات الدراسية والنشاطات العلمية والتأليفية، وقد كان ابنه الفاضل العلامة المفتي نور الحق الدهلوي (م ١٠٧٣هـ) الذي شرح صحيح البخاري في ستة مجلدات، وله شرح أيضاً على «شمانل الترمذي»، يستطيع أن يقوم بتكميل ذلك الجهود والأعمال التي بدأ بها والده. ولكن لعله لم يتمكن كثيراً بسبب توليه منصب القضاء في مدينة مركزية كأكبر آباد (آكره حالياً) من القيام بتدريس الحديث الشريف ونشره، وكان ابنه الشيخ شيخ الإسلام الدهلوي أيضاً من كبار المحدثين وله شرح مبسوط لصحيح البخاري بالفارسية.

والحقيقة أنه لأسباب معلومة وأسباب أخرى غير معلومة، لم تستطع جهود هؤلاء المشائخ الفردية أن تحدث ما كان متوقفاً من الإقبال العام على الحديث الشريف والاهتمام اللائق به، والنشاط والحيوية في نشره وتدريسه وتعميمه. ولعل من بعض العوامل لذلك أن هؤلاء كانت تغلب عليهم نزعة تأييد المذهب الحنفي بالحديث الشريف، والسبب الثاني أن مركز التعليم والثقافة من أواسط القرن الثاني عشر نفسه بدأ ينتقل من دلهي إلى لكهنؤو، وبدأ منهج دراسي جديد على أيدي أستاذ العلماء الشيخ نظام الدين السهالوي (م ١١٦١هـ) المباركة القوية في التكوين، ولم تكن قد قامت صلة هؤلاء الواضعين والمكونين لهذا المنهج الدراسي الحديث الشريف وتدريسه وخدمته ونشره، وكانت تغلب عليهم (كما يتضح ذلك من

تاريخ «المنهج النظامي» وكتب التراجم والطبقات) العلوم الحكيمة ومن العلوم الدينية علم أصول الفقه.

وعلى كل فإن الأوساط العلمية والدينية في الهند كانت في حاجة وانتظار لتلك الشخصية التي تكون صلتها بالحديث صلة الحب والغرام، والتي جعلت نشر الحديث الشريف وتعميمه أول أهدافها ومقاصدها في الحياة، لقد وجدت الهند هذه الشخصية في أواسط القرن الثاني عشر الهجري في شخص الإمام ولي الله الدهلوي الذي طبق بمعنى اللفظ هذا الشعر الفارس الذي معناه:

«لقد نسينا كل ما قرأنا وتركناه إلا حديث الحبيب الذي لا نملُّ من تردادهِ وتكراره».

لقد ذكر مؤلف «الثقافة الإسلامية في الهند» بعد ذكره لأولئك الذين أسهموا في أوائل القرن الحادي عشر في خدمة الحديث ونشره في الهند، خدمة الإمام الدهلوي للحديث، التي تمتاز ليس في هذه البلاد فحسب بل في هذا العهد الأخير بمكانتها التجديدية والاجتهادية وصبغتها في الإصلاح والإحياء، والتي أدت إلى سيادة الحديث وازدهاره في هذه البلاد، فأصبح جزءاً ضرورياً من المقررات الدراسية، ومقياساً للفضيلة والكمال، وقامت حلقات مستقلة لدروس الحديث الشريف، وعم تدريس الصحاح الستة لاسيما الكتب الأربعة منها: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، بالبحث والتحقيق في المدارس (الأمر الذي لا يوجد الآن في البلدان العربية نفسها) وبدأ عهد جديد لشروح كتب الحديث والتعليقات عليها حتى لم تلبث أن تكونت منها مكتبة ضخمة كبيرة لا يوجد

مثيلها في البلاد العربية نفسها^(١)، وترجمت كتب الحديث، التي استفاد منها عامة المسلمين والذين لا يعرفون العربية وكذلك السيدات المسلمات استفادة عظيمة، وكان ذلك دافعاً إلى الجد والعمل، شائقاً لإتباع السنة والاهتمام بها ومرغباً في الأسانيد وإجازات الحديث، وأصبحت الهند مركزاً لهذا العلم الشريف حتى صدرت من قلم عالم مصري جليل كالعلامة السيد رشيد رضا منشئ مجلة «المنار» الغراء، هذه الكلمات التالية:

«ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لَقُضِيَ عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر^(٢)».

الإمام الدهلوي وأراؤه في الحديث :

ما هي تلك العاطفة القوية التي دفعت الإمام الدهلوي إلى الاشتغال بالحديث ثم بالنشاط في نشره والدعوة إليه، ونذر حياته وصلحياته له، ينبغي لمعرفتها وإدراكها الرجوع إلى كتابات الإمام الدهلوي نفسه إذ أنها المرآة الصحيحة الوضيئة لآرائه وخواطره، يقول في الصفحة الأولى من مقدمته لـ «حجة الله البالغة».

«إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذي يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين □ وأصحابه أجمعين، من قول، أو

(١) إن الجماعة الكبيرة لأساتذة الحديث وشراحه ومؤلفيه التي ظهرت في الهند بتأثير دعوة الإمام الدهلوي وحرركته وتعليمه وتربيته، وما أنتجت من مكتبة عظيمة واسعة في الحديث وعلومه، يلزم لتقدير سعتها وتنوعها مراجعة كتاب العلامة عبد الحي الحسني «الثقافة الإسلامية في الهند» الفصل الرابع من الباب الثاني بعنوان «مصنفات أهل الهند في الحديث»، ص : ١٤٢ - ١٦٠.

(٢) مقدمة «مفتاح كنوز السنة».

فعل، أو تقرير، فهي مصابيح الدجى ومعالم الهدى، وبمنزلة البدر المنير، من انقاد لها ووعى، فقد رشد واهتدى وأوتي الخير الكثير، ومن أعرض وتولى فقد غوى وهوى، وما زاد نفسه إلا التخصير، فإنه صلى الله عليه وسلم نهى وأمر وأنذر وبشر وضرب الأمثال وذكر. وإنها لمثل القرآن أو أكثر»^(١).

ويقول في موضع من بعض كتاباته: «إن أول شيء يوجب العقل على نفسه، هو تتبُّع أحوال النبي ﷺ وأقواله، ماذا قال فيما يتعلق بالأحكام الإلهية وكيف عمل بها. ثم يقتدي بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقالب، فإن حديثنا عن شخص قد سلم بأن الله - تعالى - قد كلف عباده بأحكامه، وقد عزم هو على أداء مسنوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعي»^(٢).

شكوى قلة العناية بالحديث الشريف في الهند :

لقد كان الدافع الثاني للإمام الدهلوي إلى إحياء الحديث ونشره وترويجه في الهند، هو ذلك الوضع السائد في الهند الذي تقدم الحديث عنه في الباب الثاني من الكتاب، لقد كان يغشى الأوساط الدينية حينذاك ضباب كثيف من البدع وتقاليد الجاهلية، وطقوس غير المسلمين وتقليدهم فيها والشعائر غير الإسلامية، التي كان من العسير من خلالها رؤية طلعة الإسلام البهية، وكانت تسود في الأوساط العلمية والدراسية تلك العلوم المستوردة من اليونان التي كانوا يسمونها «فنون الحكمة» والعلوم الآلية، وفنون البلاغة وعلم الكلام ولم يكن للعلوم الشرعية لاسيما علم الحديث الشريف نصيب لائق في هذه الأوساط العلمية والدراسية، وإذا صرف شيء من العناية إلى العلوم الشرعية فلم يكن الأمر يتعدى حدود الفقه وأصول الفقه

(١) مقدمة «حجة الله البالغة»، ص: ٢.

(٢) كلمات طبيبات، ص: ١٧٣.

ودقائقتها وشق الشعرة فيهما، يقول الإمام الدهلوي - وهو يشاهد هذا الوضع - في أسف شديد وحزن بالغ:

«وأقول لطلبة العلم، أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعاني، وظننتم أن هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله، أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها، أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ عليه وسلم وكيف توضحاً، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم، وكيف يحج وكيف يجاهد، وكيف كان كلامه وحفظه للسانه، وكيف كانت أخلاقه، فاتبعوا هديه واعملوا بسنته على أنه هدي وسنة، ولا على أنه فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة، أن تتعلموا ما هي أركان الوضوء، وما هي أركان الصلاة، وما نصاب الزكاة، وما قدر الواجب، وما سهام فرائض الميت، أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل، وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة إنما هي من علوم الدنيا، خضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم، أما تعرفون أن الحكم ما حكمه الله ورسوله، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به، ويقول إنما عملي على مذهب فلان لا على الحديث، ثم تخيل بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة، وأن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم في الدين من نسخ أو مرجوحية».

اعلموا أنه ليس هذا من الدين في شيء إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه، خالف مذهبنا أو وافقه، كان مرضي الحق أن تشتغلوا بكتاب الله وسنة رسوله ابتداءً، فإن سهل عليكم العمل بهما، فيها ونعمت، وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأي من مضى من العلماء، ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة، وأن لا تشتغلوا بالعلوم

الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة، أما أوجب الله عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد، واستكثرتم في أعينهم طلب الحق والدين، أما ترون البلاد العظام تخلو عن العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر^(١).

نشاط الإمام الدهلوي في خدمة الحديث الشريف ونشره:

تقدم - فيما سبق - أن الإمام الدهلوي لما ذهب يودع أستاذه الشيخ أبا طاهر المدني، أنشده شيخه هذا البيت من الشعر:

نسيت كل طريق كنت أعرفه إلا طريقاً يؤدِّيني لربكم

فقال الإمام الدهلوي كذلك: «نسيت كل ما قرأت سوى علم الحديث الشريف».

وتشهد حياة الإمام الدهلوي كلها على أنه كانت منصرفاً اتصرفاً كلياً إلى خدمة الحديث الشريف، شرحه وتفهمه، وتدريسه وتعليمه، ونشره وتعميمه، ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾^(٢).

وقد شمر عن ساق الجد بعد عودته من الحجاز إلى الهند لخدمة الحديث الشريف ونشره، ولم تلبث «مدرسته الرحيمية» أن أصبحت أكبر مؤسسة تعليمية في طول الهند وعرضها وتهافت عليها طلاب علم الحديث من أنحاء الهند

(١) التفهيمات الإلهية، ج: ١، ص: ٢١٤-٢١٥.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

وأصقاعها تهافت الفراش على النور، وقد كان في هذه الإصقاع مثل «السند»^(١) و «كشمير»^(٢) من المناطق البعيدة، أما دلهي ونواحيها وشمالى الهند فلا تسأل عنه، وقد كان من المستفيدين من هذه الدروس سوى مسند الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي (الذي كان ابنه الأكبر الفاضل والقائم بتكميل أعماله وجهوده وتوسيع نطاقها) مفخرة الهند العلامة السيد مرتضى البكرامي المعروف بالزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥هـ) صاحب «تاج العروس شرح القاموس» و «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» الذي دوى صيت تبخره في العلم وتحديثه في العالم العربي، وكان مجلسه بالقاهرة يضاهاى مجالس الملوك والسلاطين، وكان من خريجي هذه المدرسة يبهقى عصره القاضي الشيخ ثناء الله البانسي بتي (م ١٢٢٥هـ) خليفة الشيخ الجليل ميرزا مظهر جان جاتان، ومؤلف «التفسير المظهري» و «ما لا بد منه»^(٣).

وهكذا أصبح علم الحديث في الهند - بعد قرون، ولعله لأول مرة - قد نفقت سوقه وقامت دولته، وأقبل عليه الناس إقبالاً عظيماً حتى ظلت الهند تباهى اليمن الميمون، وبدأت نفحاتها الرخية المنعشة تصل إلى أرض الحجاز نفسها^(٤)، وقد

(١) لقد ورد الشيخ محمد معين من السند إلى دلهي، ودرس الحديث على الإمام الدهلوي واستفاد منه، وكتابه «دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحبیب» معروف، يتجلى فيه ذوق الإمام الدهلوي ومنهج بحثه وتحقيقه، توفي عام ١١٦١هـ (انظر «نزهة الخواطر»، ج: ٦).

(٢) كان الشيخ خواجه محمد أمين الكشميري من خواص تلامذة الإمام الدهلوي والجملة الدعاة لمشربه وبحوثه وتحقيقاته، وهو معروف بمحمد أمين الولي اللهي، وقد كان الشيخ عبد العزيز أحد تلامذته وقد ألف الإمام الدهلوي بعض رسائله (انظر «نزهة الخواطر» ج: ٦).

(٣) «نزهة الخواطر»، ج: ٧.

(٤) وقد أقام الشيخ إسحاق الدهلوي والشيخ عبد الغني المجددي من خريجي هذه المدرسة وتلامذة الإمام الدهلوي حلقات دروس الحديث الشريف في الحرمين الشريفين، وانتفع بهم خلانق من العرب والعجم. (انظر للتفصيل «نزهة النظر»، ج: ٧).

أنشد النواب العلامة السيد صديق حسن خان في ذكر الإمام الدهلوي وخدمته
للحديث الشريف، ونشاطاته في القيام بنشره، بيتين من الشعر البليغ، يصورانه
تصويراً حقيقياً:

من زار بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من ممن
فالعين عن قرّة ، والكف عن صلة ولقب عن جبر وسمع عن حسن

ومن الطريف أن المنن التي ذكرتها هذه الجوارح وأشادت بها، والأسماء التي
أشارت إليها في هذا الصدد، كلها أسماء رواة الحديث والشيوخ المحدثين، مثل قرّة
بن خال السدوسي ، وصلة بن أشيم العدوي ، وسيدنا جابر بن عبدالله - والحسن
البصري- رحمهم الله أجمعين - .

خدمات الإمام الدهلوي التأليفية في علوم الحديث

إن المؤلفات التي خلفها الإمام الدهلوي في الحديث وعلوم الحديث، نورد
أسماءها فيما يلي:

- ١- المصفى (شرح مؤطأ الأمام مالك بالفارسية).
- ٢- المسوى (شرح المؤطأ المختصر بالعربية).

إن المنهج الذي كان الإمام الدهلوي يريد ترويجه في فقه الحديث
ودروسه يمثل هذه الكتابان خير تمثيل، وتتجلى فيهما مكانة الإمام الدهلوي
الاجتهادية وطول باعه في فقه الحديث ، وعلومه ، إنه كان يضع المؤطأ
على الدرجة الأولى من الكتب الستة ، وكان معجباً بالموطأ غاية الإعجاب ،

وكان يدعو - بحماس وقوة - إلى العناية اللائقة به وتقديمه في البدء بتدريس الحديث^(١).

يقول الإمام الدهلوي في «وصايا».

«عندما يحصل التمكن من العربية، فيدرس الموطأ برواية يحيى بن يحيى المصمودي، ولا يعرض عنه أبداً فإنه أصل علم الحديث وتدرسه يحمل فوائد جمة، وقد حصل لنا سماع الموطأ كله بالرواية المتصلة»^(٢).

٣- شرح تراجم الأبواب لصحيح البخاري: هذه رسالة في شرح تراجم أبواب البخاري التي اعتبرت - دائماً - أدق شيء وألطفه في دروس البخاري، وقدم شرح صحيح البخاري ومدرسود - في كل عصر - أمثلة لذكائهم ودقتهم وتعمقهم فيه، وهذه الرسالة بالعربية، كانت طبعت أولاً عام ١٣٢٣هـ ب «دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ثم ضمت - كمقدمة - إلى نسخة صحيح البخاري التي طبعت بأصح المطابع بدلهي»^(٣).

٤- مجموعة الرسائل الأربعة: تشتمل على «الإرشاد إلى مهمات الإسناد» «تراجم البخاري»، وهي غير «شرح تراجم الأبواب للبخاري» وجاءت في ورقة واحدة.

٥- «الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين» و «النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر» و «الأربعين»، وقد ألف الإمام الدهلوي هذه الأربعين لما ورد في فضل حفظها وتبليغها إلى الناس من أحاديث، وعمل بها العلماء في

(١) انظر مقدمة «المصطفى»، ومقدمة «أوجز المسالك»، «الفائدة الثانية في درجة الموطأ من بين كتب الحديث»، للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ص: ٣٢-٣٣.

(٢) الوصايا (بالفارسية) ص: ١١.

(٣) وهي موجودة في رسالة «تراجم أبواب البخاري» أيضاً للشيخ العلامة محمد زكريا الكاندهلوي (١٤٠٢هـ).

مختلف العصور، والأحاديث التي اختارها الإمام ينطبق عليها أنها «قليلة المبنى كثيرة المعنى»، وهي جديرة بأن تحفظ عن ظهر قلب، وتقرر دراستها في المدارس.

٦- المسلسلات.

وأما الكتب التي ليست في فن الحديث رأساً وأساساً ولكن لها علاقة بعلم الحديث، وينبغي أن تدرس كمقدمة لفن الحديث، ويقدر منها ما كان يمتاز به الإمام الدهلوي من نظرة عميقة فاحصة في علم الحديث، وتوفيق بين الحديث والفقه وإنصاف درجاته، صدر في المقارنة بين المذاهب، وسعة نظر في طبقات المحدثين وطبقات كتب الحديث، واتزان وتوسط واعتدال في عامة الأحوال، الصفات التي وهبها الله إياها، فهذه الكتب حسب ما يلي:

١- «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف»: جاءت محتويات هذا الكتاب في عدة مباحث بعنوان التتمة الثانية في «حجة الله البالغة» وتمتد من صفحة ١٤٠ إلى صفحة ١٦٢^(١)، وتشتمل التتمة على أربعة أبواب، وقد حقق ناشر الكتاب أن هذه التتمة لم توجد إلّا في نسخة واحدة من نسخ «حجة الله البالغة»، ويقول الإمام الدهلوي في آخر هذه الأبواب:

«... فعزمت على تأليف كتاب أسميه» غاية الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، وأبين فيه هذه المطالب بياناً شافياً وأكثر فيه من ذكر الشواهد والأمثال والتفريعات مع المحافظة على الاقتصاد بين الإفراط والتفريط في كل مقام والإحاطة

(١) انظر نسخة المكتبة السلفية- لاهور.

بجوانب الكلام وأصول المقصود والمرام ثم لم أتفرغ له إلى هذا الحين، فلما انجرَّ الكلام إلى مأخذ اختلاف حملني ما أجد على أن أبين بعض ما تيسر من ذلك ^(١).

ويبدو أن الإمام الدهلوي وجد الفرصة بعد ذلك، فأفرد هذا الموضوع في رسالة مستقلة باسم «الإتصاف في بيان أسباب الاختلاف»، ولذلك يوجد بين هذه الرسالة و«حجة الله البالغة» اختلاف يسير، وحذف وتغيير في بعض المواضع.

وقد طبعت هذه الرسالة في الهند وخارجها عدة مرات، وتوجد بين هذه النسخ بعض الخلافات في بعض الألفاظ، فكانت طبعتها الأولى في الخارج صادرة من «شركة المطبوعات العلمية» عام ١٣٢٧ هـ، ثم نشرته «مكتبة المنصورة» ثانيًا، وبين أيدينا الآن نسخة جيدة من طبع «دار النفائس» بيروت، وقد جاءت في مائة وإحدى عشرة صفحة بالقطع الصغير. وقد قام المحدث الجليل في عصرنا الحاضر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بمقابلته وتصحيحه والتعليقات عليه.

٢- عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد.

٣- المبحث السابع ^(٢) من حجة الله البالغة.

والحقيقة أنه من القسم الثاني في بيان أسرار ما جاء عن النبي ﷺ تفصيلًا في الجزء الأول من «حجة الله البالغة»، إلى نهاية الجزء الثاني منه ليس إلا شرحًا كلاميًا حكيمًا للحديث الشريف ومحاولة اجتهادية موفقة للكشف عن أسرار وحكمه، وتطبيقه العملي الذي لم يكن إلا نصيب الإمام الدهلوي وقد حاز فيها قصب السبق ونال القدر المعلي. ومن المؤسف أن الدارسين، لحجة الله البالغة،

(١) حجة الله البالغة، ص: ١٦١.

(٢) أيضًا، ص: ١٢٨-١٤٥.

والمدرسين له (على أنهم أقل قليل) يغفلون هذه المباحث ولا يتفطنون لأهميتها وشأنها.

التوفيق بين الفقه والحديث :

لقد كان الفقه والحديث في كثير من الأوساط العلمية والدراسية والتأليفية في العالم الإسلامي ينتقلان منذ عصر طويل في سلسلتين مواجهتين ، وكان كل واحد منهما في محله (من حين ظهوره واشتداد ساعده) يقطع طريقه في غنى وانصراف عن الآخر، وكانا بعد هذا الفراق في كثير من الأحيان لا يجتمعان عند أي نقطة من النقاط ، ولم يكن يبحث في الحديث في كثير من المذاهب الفقهية إلا إذا كانت مسألة فقهية تحتاج إلى تأييد من حديث، أو كانت لها حاجة إلى دفع اعتراض من اعتراضات علماء المذهب الفقهي الثاني، وتصريحهم بأن هذه المسألة مخالفة للحديث أو إذا كانت القصد ترجيح مذهب على مذهب، وكانوا في دروس الصحاح الست إما أن يتأولوا تلك الأحاديث التي تخالف مذهبهم، أو يقدموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التي تؤيد مذهبهم، وإذا كان هناك استدلال في واحد من كتب المذاهب الفقهية المعتبرة المهمة بالأحاديث فإن العلماء الذين قاموا - ممن لهم اطلاع واسع على علوم الحديث، ويملكون ذوق المحدثين- بمحاولة تخريج هذه الأحاديث والكلام عليها كالمحدثين النقاد^(١) ، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانت إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك المذهب الفقهي والانتصار له، وإثبات أنه موافق للأحاديث، وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب، وهي تستحق الشكر والتقدير، ولكنها لم تكن محاولة لإعادة النظر في المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث.

(١) من أمثلته الرائعة كتاب العلامة الزيلعي: «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية».

(١) وقد تكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد، كان من الممكن كسرها ،
ومن المستحيل مدها وبسطها، وكان أتباع كل مذهب قد اعتقدوا في أنفسهم أن
صححة مذهبهم مائة في المائة، وهي الحقيقة الأصيلة، وإما إمكان الخطأ البشري
فمحتمل وقد عبر بعضهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة: «مذهبنا صواب
يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يَحتمل الصواب»، وقد كان من نتيجة هذه الوجهة
للنظر أن المذاهب الأربعة (الحنفي والمالكي، والشافعي، والحنبلي) التي أجمعت
على قبولها الأمة، وسلم - أصوليًا- بين أهل الحق وأهل العلم من أول عهودها
فيما يتعلق بها بأن الحق دائر فيها وأن أئمتها ومؤسسيها إنما هم أئمة الهدى
وقادة الأمة وأن هذه المذاهب حق، يتسع بينها الخليج ويعمق، وينجر الخلاف بين
أتباعها إلى التباغض، والبحث والنقاش بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة،
وكان أدهى من ذلك وأمر معاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبدؤون العمل بالحديث -
كليًا أو جزئيًا- في العبادات ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثاني عشر، العالم
السلفي المحدث الشيخ محمد فاخر الإله آبادي (١١٢٠ - ١١٦٤هـ) الذي تعرض
(حسب رواية بعض المؤلفين) لسخط العامة وغضبهم لسلفيته وإتباعه للحديث (٢).

لقد كانت هذه مآثرة من مآثر الإمام الدهلوي التجديدية وحلقة ذهبية رائعة
في سلسلة خدمته للحديث الشريف وانتصاره للسنة السنية أن قام بمحاولة التوفيق

(١) أي أنه توجد أمثلة الانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس، أو
اختيار مذهب العمل بالحديث في كل عصر، أما العدول عن بعض المسائل جزئيًا مع
البقاء في نطاق المذهب وحدوده واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر، أو العمل
بالحديث، فأمثله قليلة جدًا، وذلك لأن كثيرًا من العلماء يرون «تجزئ التقليد» غير
جائز، أي إذا عمل إنسان بمسألة من مذهب فقهي ثم عمل بأخرى من مذهب فقهي آخر
فإنه يخرج عن تقليد الأول، وذلك عندهم غير صحيح.
(٢) انظر ترجمة الشيخ فاخر الإله آبادي «نزهة الخوטר»، ج : ٦.

بين الفقه والحديث، ثم محاولة الجمع والتأليف بين المذاهب الأربعة، وهذا يدل على صدق تلك البشارة التي تلقاها الإمام الدهلوي وقيل فيها:

«إن مراد الحق فيك أن يجمع شملًا من شمل الأمة المرحومة بك»^(١).

أما فيما يتعلق بشبه القارة الهندية فإننا لا نعثر قبل الإمام الدهلوي على محاولة خدمة للجمع والتوفيق بين الفقه والحديث، والجمع بين المذاهب على أساس الحديث، ويرجع ذلك إلى أسباب تاريخية وعلمية، إن شبه القارة الهندية دامت من أول عهودها الإسلامية تحت سلطة أولئك الفاتحين والمؤسسين للحكومات والدول الذين كانوا تركي الأصل أو أفغاني الأصل، وكلا الشعبين من عهد اعتناقهما للإسلام - تقريباً - يحتضنان المذهب الحنفي ويتحسان وينشطان للدفاع عنه ونشره، وأنه لم يقدر هنا للمذهب المالكي والمذهب الحنبلي في التاريخ الإسلامي الممتد على ثمانية قرون أن يدخل في هذه البلاد. أما المذهب الشافعي فكان لا يعدو بعض المدن الساحلية أو جنوب الهند بـ «مدراس» أو طرفه الشمالي (كرناتك حالياً) ببعض أجزائه كـ «هتكل» وغيرها، و «كيراالا»، ولم ينبغ فيهم - في حدود علمنا - باستثناء «مالابار» (بلاد المعبر - قديماً) التي وفد إليها دعاة الإسلام من التجار والمشائخ والعلماء والفقهاء الذين كانوا من أتباع المذهب الشافعي فقهاء ومحدثون شافعيون مرموقون. عدا الشيخ المخدوم الفقيه علي المهانمي (م ٨٣٥ هـ) مؤلف تفسير «تبصير الرحمن وتيسير المنان» وشيخ «مالابار» المخدوم إسماعيل الفقيه السكري الصديقي (٩٤٩ هـ)، كذلك المخدوم الشيخ زين الدين المليباري (م ٩٢٨ هـ) مؤلف «فتح العين»^(٢)، الذين يتركون تأثيرهم على

(١) فيوض الحرمين، ص: ٦٢.

(٢) انظر للتفصيل كتاب «عرب وديار هند» للشيخ خواجه بهاؤ الدين الأكرمي الندوي البهتكلي، والكتاب في أردو.

الأوساط العلمية في الهند (لاسيما شمالي الهند) ويحملون العلماء الأحناف على دراسة الفقه الشافعي العميقة والاستفادة منه وأما العلماء وطلاب علوم الحديث والفقه الذين كانوا يرحلون من الهند إلى الحجاز (الذي كان تحت إدارة الدولة التركية، والأتراك لم يزالوا- في كل عصر- سنيين وحنفيين مائة في المائة) فكانوا أيضًا يتصلون بالعلماء الذين هم على مذهبهم وخاصة بأساتذة الفقه والحديث من مواطني بلادهم الذين هاجروا إليها من الهند وأفغانستان، وكان تلامذتهم عددًا كبيرًا (١)

لقد كان الإمام الدهلوي أول شخص تتلمذ في الحرمين الشريفين على محدث شافعي جليل كالشيخ أبي طاهر الكردي المدني واستفاد منه استفادة كبيرة، وكان معجبًا بعلمه وشخصيته وكماله الباطني وسعة نظره ورحابة صدره وتأثر به في هذه النواحي؛ وإن شيوخ الإمام الدهلوي في الحرمين الشريفين الذين ترجم لهم في كتاب «إنسان العين» لم يكن فيهم من العلماء المحدثين الحنفية إلا الشيخ تاج الدين القلعي، وكان من هؤلاء الشيوخ الشيخ محمد وفد الله بن الشيخ محمد بن محمد بن سليمان من المالكية، وأن العهد الذي عاشه الإمام الدهلوي في الحرمين الشريفين كانت فيه القيادة العلمية والسيادة والريادة في مجال التعليم والتدريس (لاسيما في تدريس فن الحديث الشريف) بأيدي العلماء والمحدثين اليمنيين أو المحدثين الكرديين، وكانوا- بصفة عامة- شافعية، لأجل هذه العوامل كلها، تهيأت الفرصة السانحة للإمام الدهلوي للإطلاع على أصول الفقه الشافعي وقواعده، وخصائصه ومميزاته، كما قيض له وإن يتعرف على الفقه المالكي والفقه الحنبلي من علمائهما، الأمر الذي لم يتيسر لعلماء الهند- منذ مدة طويلة- (لأسباب تاريخية

(١) أمثال العلامة الشيخ علي المتقي البرهان بوري صاحب «كنز العمال» والعلامة قطب الدين النهروالي، وملا علي القاري الهروي المكّي، والشيخ عبد الوهاب المتقي والشيخ محمد حياة السندي وغيرهم.

وسياسية وجغرافية ومدنية) كما أمكن له الدراسة المقارنة للمذاهب الأربعة التي لم تكن تتيسر لأولئك العلماء الذين لم تواتهم هذه الفرص السانحة.

لقد رحل الإمام الدهلوي إلى الحجاز عام ١١٤٣هـ وهو في الثلاثين من عمره، وكان قد درس في الهند اثني عشر عاما، ولكن لما أودع الله - تعالى - في طبعه من جامعية واتزان وسعة في الأفق ورحابة في الصدر، ونزعة تطبيقية توفيقية موهوبة، وميل طبيعي إلى الجمع والوصل لا الفرق والفصل، لذلك فإنه قبل رحلته إلى الحجاز أيضاً كان يحمل الاتجاه إلى التطبيق والتوفيق بين الفقه والحديث، وكان قد عزم على ترجيح مسلك المحدثين الفقهاء، واختياره مسلكه وطريقه في الحياة، يقول في «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف»:

«وبعد ما طالعت كتب المذاهب الأربعة وأصولها، ونظرت في الأحاديث التي يتمسكون بها اعتزمت على طريق الفقهاء المحدثين بإشارة نور الغيب وإيحائه^(١)»

وقد انتقد الإمام الدهلوي طريق الفقهاء الغلاة في مذهبهم (الذين لا يستطيعون أن ينحرفوا عن مذهبهم قيد شعرة) والفرقة الظاهرية (التي تنكر الفقه المذهبي - رأساً - ويطلق لسانه في أولئك الفقهاء الأجلة الذين هم رأس العلماء وأئمة أهل الهدى وقادة أهل الدين) انتقاداً شديداً، وأبدى سخطه ونفورده من مغالاة الطبقتين وشدتهم وتطرفهم. وصرح بكل وضوح «بأن الحق أمر بين بين» لا الفريق الأول على الحق الصرف ولا الثاني على المييين.

(١) «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف»، ص: ٤.

يقول الإمام الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»: «إن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل في الدين، ولم يزل المحققون من العلماء في كل عصر يأخذون بهما، فمنهم من يقلّ من ذا ويكثر من ذلك، ومنهم من يكثر من ذا ويقلّ من ذلك، فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهما بالمرّة كما يفعله عامة الفريقين، وإنما الحق البحث أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يجبر خلل كل بالآخر، وذلك قول الحسن البصري»^(١).

ويقول في «وصاياها»: «ينبغي في المسائل الفرعية إتباع أولئك العلماء المحدثين الذين يجمعون بين الفقه والحديث، ولا بد من عرض المسائل الفقهيّة على كلام الله - تعالى - وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ويزيد قائلاً: «ولا غنى للأمة في أي عصر من العصور، عن عرض المسائل الاجتهادية على الكتاب والسنة»^(٢).

لقد كانت نشأة الإمام الدهلوي وتربيته في بيئة يسود فيها الفقه وأصول الفقه الحنفي، وكان مطلعاً على خصائص المذهب الحنفي ومعترفاً بها كأبي عالم حنفي كبير، وكان يعرف هذه الحقيقة، ويصرح بها في كثير من المواضيع أن الخدمة التي قام بها العلماء للمذهب الحنفي (كذلك للمذهب الشافعي) - لأسباب وعوامل تاريخية وعلمية وسياسية ومدنية متعددة- وما بذلوه من جهود في تهذيبه وتنقيحه وشرح مستونه، والتفريع على أصوله لم يتيسر لمذهب آخر. يقول عن الإمام أبي حنيفة - رحمه الله تعالى -:

(١) «حجة الله البالغة» ج: ١، ص: ١٥٦، وانظر للتفصيل مبحث «حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها».

(٢) «الوصايا» (بالفارسية)، ص: ٢-٣.

«كان عظيم الشأن في التخريج على مذهب إبراهيم وأقرانه، دقيق النظر في وجوه التخريجات، مقبلاً على الفروع، أتم إقبال»^(١).

ولكنه مع ذلك يعترف بعظمة الإمام مالك وجلالة شأنه، وبصحة كتابه «الموطأ»، ومنزلته الرفيعة العالية وفوائده الغالية، ويدعو إلى الاعتراف بها، ويرى أنه من الكتب الأساسية الأولى في الحديث^(٢)، كما يصف - في جانب آخر - المذهب الشافعي بأنه مصفى ومنقح وأقرب إلى الحديث في ثناء وإطراء ويعترف بدقة نظر الإمام الشافعي أيما اعتراف^(٣)، ثم يذكر الإمام أحمد بن حنبل فيقول في «حجة الله البالغة»:

«وكان أعظمهم شأنًا وأوسعهم رواية، وأعرفهم للحديث مرتبة، وأعمقهم فقهاً، أحمد بن حنبل ثم إسحاق بن راهويه»^(٤).

لقد كان الإمام الدهلوي، لاطلاعه المباشر على مكانة هؤلاء الأئمة الأربعة وجلالة شأنهم وسعة علمهم ودقة نظرهم، ومنتهم الجليلة على الأمة (عن طريق كتبهم وكتب التاريخ والتراجم) وحبهم وإجلالهم من أعماق القلب، من الجامعية والتبخر والاتزان والتوسط في الدراسة المقارنة للفقهاء والحديث، مالا يتوقع - بطبيعة الحال - من أولئك العلماء والمؤلفين الذين انحصرت دراستهم وصلتهم العقلية والفكرية في تطابق مذهب فقهي واحد، وبواضعه ومؤسسه الأول، ولا

(١) الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ص: ٣٩.

(٢) انظر مقدمة «المصطفى».

(٣) انظر «الخير الكثير»، ص: ١٢٤، و«قرة العين»، ص: ٢٤٢. للإمام الدهلوي.

(٤) حجة الله البالغة، ج: ١، ص: ١٥٠.

تتيسر لهم أي فرصة للخروج - لأسباب طبيعية وشخصية كثيرة- من هذه الدائرة المحددة.

نقطة التوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد :

إن من فضائل الإمام الدهلوي الموهوبة ومميزاته التجديدية التي خصه الله - تعالى- بها، هو ذلك المسلك المتزن المتوسط، وتلك النقطة المتوسطة التي اختارها بين الاجتهاد والتقليد، والتي هي دليل ساطع رافع على طبيعته السليمة المتزنة وذوقه الصحيح وواقعيته، فقد كان هناك فريق يكلف كل مسلم - سواء كان عامياً أو عالماً- بالعمل وفق الكتاب والسنة واستفادة الأحكام والمسائل الشرعية منهما مباشرة، ويحرم التقليد تحريماً مطلقاً، وهم إن كان كلامهم لا يصرح بهذا الموقف فإن منهجهم في العمل وكتاباتهم تؤدي - طبعاً- إلى هذه النتيجة، وقد كان في المتقدمين من هذا الفريق والمتحمسين لهذا الموقف العلامة ابن حزم، ولكن هذا الموقف غير عملي وغير واقعي، وإن تكليف كل مسلم بذلك تكليف بما لا يطاق.

وكان - في جانب آخر- فريق آخر يوجب على جميع المسلمين التقليد ويصف من يخلع ربقته من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة كـ «الفاسيق» و «الضال»، كما يصف الفريق الأول بذلك جماعة المقلدين والمتبعين لمذهب فقهي خاص، وكان هذا الفريق يتناسى أن التقليد إنما هو طريقة تنظيمية إدارية لصيانة العامة من الناس من إتباع النفس والهوى، والقول بالرأي، وحماية المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية، وتيسير العمل بالأحكام الشرعية، ولكنهم جعلوا هذا العمل التنظيمي في منزلة العمل التشريعي، وألحوا عليه بشدة وتأكيد غليظ، نقله من كونه مذهباً فقهيًا ومسألة اجتهادية فحسب إلى كونه نصاً ظاهراً، وعملاً قطعياً وأمرًا دينياً مستقلاً.

إن المنهج الذي اختاره الإمام الدهلوي وما عبر به عن ذلك، هو أقرب إلى روح الشريعة، وأكثر انسجاماً مع منهج القرن الأول وأوفق بالفطرة البشرية، وأمس بالحياة العملية، ويذكر الإمام الدهلوي - في هذا الصدد - طريقة العمل السائدة قبل القرن الرابع الهجري ويشرح كيف كان الناس يحلون مسائلهم الجديدة الطريفة ومشاكلهم العارضة في حياتهم الدينية وعباداتهم ومعاملاتهم، وما هو الطريق الذي كانوا يختارونه ويسلكونه، يقول في باب «حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها» من «حجة الله البالغة».

منهج المسلمين في القرون الأولى:

اعلم أن الناس كانوا قبل المائة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه، قال أبو طالب المكي في «قوت القلوب»: «إن الكتب والمجموعات محدثة والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله والحكاية له من كل شيء والتفقه على مذهبه لم يكن الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني».

أقول وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من التنبع، بل كان فيهم العلماء والعامة، وكان من خبر العامة أنهم كانوا في المسائل الاجتماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آبانهم أو معلمي بلدانهم فيمشون حسب ذلك، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أي مفت وجدوا من غير تعيين مذهب، وكان من خبر الخاصة أن أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث فيخلص إليهم من أحاديث النبي (ﷺ) وأثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء آخر في المسألة من حديث

مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء، ولا عذر لتارك العمل به، أو أقوال منظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها، فإن لم يجد في المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل وعدم وضوح الترجيح ونحو ذلك رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء، فإن وجد قولين اختار أوثقهما سواء كان من أهل المدينة، أو من أهل الكوفة وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً ويجتهدون في المذهب، وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم فيقال: فلان شافعي، وفلان حنفي، وكان صاحب الحديث أيضاً قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له . كالنسائي والبيهقي ينسبان إلى الشافعي، فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهد . ولا يسمى الفقيه إلا مجتهداً ، ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يميناً وشمالاً.

الصورة الطبيعية المشروعة للتقليد:

ويرى الإمام الدهلوي - لغاية إنصافه وواقعيته - أن الشخص الذي يقلد مذهباً فقهياً خاصاً. أو إماماً معيناً ولكنه لا ينوي إلا إتباع صاحب الشريعة - عليه الصلاة والسلام - والاقستداء به . إلا أنه لا يجد في نفسه من القدرة ما يتوصل بها إلى الحكم الشرعي وما ثبت بالكتاب والسنة مباشرة. فله العذر في التقليد، ويكون لعدم توصله إلى الحكم - مباشرة - عدة أسباب مثل أن يكون عامياً. أو لا تتيسر له الفرص للبحث والتحقيق - مباشرة - أو لا تتوفر له وسائل العلم والبحث والتحقيق التي يستطيع أن يطلع بها على النصوص أو يستنبط من النصوص المسائل ، ويقول الإمام الدهلوي بعد إيراد قول ابن حزم أن التقليد حرام ولا يجوز لأي مسلم أن يقبل أحداً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير دليل ولا برهان: «وليس محل (قول ابن حزم) فيمن لا يدين إلا بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله، ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله. ولكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ولا بطريق الاستنباط من

كلامه، اتبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول ويفتي ظاهراً، متبع سنة رسول الله ﷺ ، فإن خالف ما يظنه أفلح من ساعته من غير جدال ولا إصرار، فهذا كيف ينكره أحد، مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبي ﷺ . ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائماً أو يستفتي هذا حيناً، وذلك حيناً بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه، كيف لا ولم نؤمن بفتيه أياً كان أنه أوحى الله إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم، فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله، فلا يخلو قوله من أن يكون من صريح الكتاب والسنة أو مستنبطاً عنهما بنحو من الاستنباط أو عريف بالقرائن أن الحكم في صورة ما منوطة بعلّة كذا واطمأن قلبه بتلك، ففاس غير المنصوص على المنصوص فكأنه يقول: ظننت أن رسول الله ﷺ قال: كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا- والمقيس مندرج في هذا العموم، فهذا أيضاً معزى إلى النبي ﷺ ، ولكن في طريقه ظنون، لولا ذلك لما قلد مؤمن مجتهداً، فإن بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذي فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين، فمن أظلم منا وما عذرنا ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(١) .

مميزات المذاهب الأربعة :

يقول الإمام الدهلوي بعد هذا التحليل المنصف الباحث عن هذه المذاهب الفقهية الأربعة التي يعمل بها في العالم الإسلامي- بصفة عامة- في رسالته: «عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد» (التي هي رغم صغر حجمها ووجازتها كبيرة القيمة) ما يلي:

(١) حجة الله البالغة، ج: ١، ص: ١٥٥- ١٥٦ (المطفيين: ٦).

«اعلم أن في الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة وفي الإعراض عنها كلها مفسدة كبيرة، ونحن نبين بوجوه:

أدها : أن الأمة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة، فالتابعون اعتمدوا في ذلك على الصحابة، وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين، وهكذا في كل طبقة اعتمد العلماء على من قبلهم، والعقل يدل على حسن ذلك، لأن الشريعة لا تعرف إلا بالنقل والاستنباط، والنقل لا يستقيم إلا بأن تأخذ كل طبقة عن قبلها بالاتصال، ولا بد في الاستنباط أن تعرف مذاهب المتقدمين لئلا تخرج عن أقوالهم فيخرق الإجماع، ويبني عليها، ويستعين في ذلك كل بمن سبقه، لأن جميع الصناعات كالصرف والنحو والطب والشعر، والحداثة والتجارة والصياغة لم تيسر لأحد إلا بملازمة أهلها، وغير ذلك نادر بعيد، لم يقع وإن كان جائزاً في العقل، وإذا تعين الاعتماد على أقاويل السلف، فلا بد من أن تكون أقوالهم التي يعتمد عليها مروية بالإسناد الصحيح، أو مدونة في كتب مشهورة وأن تكون مخدومة بأن يبين الراجح من محتملاتها، ويخصص عمومها في بعض المواضع، ويقيد مطلقها في بعض المواضع، ويجمع المختلف ويبين علل أحكامها وإلا لم يصح الاعتماد عليها، وليس مذهب في هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهب الأربعة» (١).

وهكذا اختار الإمام الدهلوي ذلك الموقف المعتدل المتزن بين الاجتهاد والتقليد الذي يوافق مقاصد الشريعة والفطرة البشرية وعالم الحقائق وينسجم معها انسجاماً كلياً، وأنه قد اشترط في التقليد أن يكون الغرض منه - مع العقلية الواضحة والنية الصالحة - إتباع صاحب الشرع - صلى الله عليه وسلم - والالتزام بالكتاب والسنة، وذلك لهذه الثقة الكاملة بأن من نجعله واسطة بيننا وبين الكتاب والسنة هو عالم بهذين

(١) عقد الجيد، ص: ٣٦-٣٨.

الأصلين، وليس إلا ممثلاً عنهما وترجماناً لهما، ثم لا بد أن يكون فيه استعداد كل حين (ولو لم يقع ذلك إلا بعد مدة طويلة) بأنه إذا وثق واطمأن بأن الشأن غير ذلك، وأن الحكم الشرعي الثابت بالكتاب والسنة ليس ما قرره ذلك الإمام فلا يتردد المؤمن في قبوله والخضوع له.

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾^(١).

الحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر :

يرى الإمام الدهلوي مع الاعتراف بخصائص المذاهب الأربعة وميزاتها وخدمات الفقهاء المحدثين الجليلة وعلو منزلتهم والاعتراف بأن هذه الثروة الفقهية والحديثية ثروة عظيمة قيمة، يستفاد منها وينتفع بها، وأن الاستغناء والإعراض عنها من أسباب الخسران والحرمان - أن الاجتهاد - مع شروطه وتحفظاته الضرورية - حاجة كل عصر، ومقتضى طبيعي للتطورات الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية وصلاحية النشوء والارتقاء، والحاجات البشرية، وتسلسل الحوادث والوقائع إثبات لسعة الشريعة الإسلامية، وأنها من الله الحكيم، وأنها تملك صلاحية قضاء جميع المتطلبات المشروعة للمجتمع البشري وهداية الناس وإرشادهم الأمر الذي لا بد من إثباته والتظاهر به في كل عصر وهو واجب من واجبات حملة الشريعة الأمانة، يقول الإمام الدهلوي في مقدمة «المصطفى»:

«إن الاجتهاد فرض كفاية في كل عصر، وليس المراد بالاجتهاد هنا الاجتهاد المستقل كاجتهاد الإمام الشافعي - مثلاً - الذي لم يكن في الجرح والتعديل والعربية

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

وغيرها في حاجة إلى غيره، كما لم يكن تابعاً لأحد في درايته الاجتهادية (بجميع أنواعها وأقسامها) بل المراد الاجتهاد المنتسب، وهو عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية، وتفريع المسائل وترتيبها على طريقة المجتهدين ولو كان ذلك بإرشاد من إمام من الأئمة».

والذي نقوله أن الاجتهاد في عصرنا هذا واجب (وهي مسألة إجماعية بين العلماء المحققين) فوجهه أن المسائل كثيرة الوقوع ولا يمكن حصرها واستيعابها ولا بد من معرفة حكم الله - تعالى - فيها، والذي دخل في حيز التحرير والتدوين لا يكفي، والخلافات فيه كثيرة ولا يمكن حلها إلا بالرجوع إلى الدلائل، والروايات المنقولة للمسائل عن الأئمة في أكثرها انقطاع بحيث لا يثق بها القلب بطمأنينة، ولذلك فلا مناص من عرضها على قواعد الاجتهاد وأصوله والبحث فيها ^(١).

عرض الشريعة الإسلامية عرضاً مبرهنناً متسقاً

والكشف عن مقاصد الحديث وأسراره

في ضوء « حجة الله البالغة »

ميزة « حجة الله البالغة » وتفرد:

إن كتاب « حجة الله البالغة » للإمام الدهلوي يعد من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلمية الكبرى، التي عرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف في صورة جامعة متناسقة مدعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة والإحسان

(١) مقدمة «المصطفى» (بالفارسية) ص : ١٢.

بترتيب وترابط ونظام، وفي تناسق واتزان، بحيث يخيل إليك كأنها لآلى العقد المنظوم أو حلقات سلسلة مترابطة، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصد والغايات والوسائل والآلات وبين الحقائق الدائمة المستقلة والأمور العارضة المؤقتة بحيث لا يغيب ذلك - لحظة - عن الأنظار، وكثيراً ما يختلط الأمر بينهما في كثير من البحوث والمؤلفات بل هي علة قديمة شائعة في تلك الكتب والمؤلفات - بصفة خاصة - التي ألقت نتيجة رد فعل لتعسف أو مغالاة أو في فورة عاطفة وحماس. ويرجع السبب في هذا الترابط والتناسق - عدا ما وهب الإمام الدهلوي من اتزان وتوسط وسلامة فطرة - إلى دراسته العميقة الواسعة لعلم الحديث الشريف، وتلك الطبيعة الخاصة التي تتكون عن طريق الاشتغال والاهتمام بالسيرة النبوية والحديث النبوي أو عن طريق صحبة العلماء الربانيين وتربيتهم الذين تربوا في المدرسة النبوية وقطرت عليهم رشحات من السيرة العطرة - على صاحبها الصلاة والسلام.

إن هذا العرض الجامع المتسق المترابط الذي نشاهده في صفحات «حجة الله البالغة» يندر نظيره في المؤلفات الدينية. وبذلك ظل كتاب «حجة الله البالغة»^(١) علم الكلام الجديد الذي يجد فيه أي إنسان يريد الحق مع سلامة الفطرة وطيب القصد (وقد أوتي شيئاً من الكفاءة العلمية ودقة النظر وعمق التفكير) إرواء كاملاً لغليله وزاداً كافياً لقناعته. وطمأنينته. ولم يؤلف كتاب - في حدود علم المؤلف،

(١) لقد وجد أن زعيم المغرب العلامة علاء الفاسي المغربي مؤلف «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها»، ومعالي الأستاذ محمد المبارك المرحوم من بين العلماء والباحثين المعاصرين العرب. يشيدون بكتاب «حجة الله البالغة» أيما إشادة ويلهجون بالثناء عليه. وقد كانوا معجبين بهذه الناحية. بصفة خاصة. أن هذا الكتاب يجمع بين شعب الدين كلها حتى يمثل عن تهذيب الأخلاق وتركية النفس والإحسان أيضاً تمثيلاً كاملاً رائعاً. كما أن العلامة الشيخ يوسف القرضاوي لفت الأنظار إلى هذا الكتاب وأهميته دراسته وسبر اغواره - في كتابه مدخل لدراسة السنة النبوية -.

وفي اللغات التي يعرفها- في تأييد أي ديانة من الديانات وتفسيرها للبق الحكيم، وفلسفتها الجامعة المتناسقة كهذا الكتاب في منزلته ومكانته وإن كان قد ألف فإنه ليس بين ظهراني العلماء والباحثين في الدنيا العلمية المعاصرة.

إن عهد «العقلانية» الخاصة الذي كان بعد القرن الثاني عشر الهجري بقليل، قد أوشك- لأسباب تعليمية وتربوية، ومدنية وعقلية وعلمية وفكرية- على الظهور في الهند وفي العالم الإسلامي كله، فنزعة البحث والتفتيش عن مصالح الشريعة الإسلامية وحكمها وأسرارها التي كادت تعم وتسد، والتي كانت تنتهياً بسببها عقول كثيرة للضلال والاحراف وأقلام كثيرة للزيغ والانطلاق، وكان الحديث والسنة النبوية- بصفة خاصة- ولأسباب خاصة- مستهدفة للشبهات والاعتراضات^(١)، إنه لم يكن يستطيع أن يواجه هذه التحديات ويلبي هذه المقتضيات إلا من يكون على علم واطلاع واسع على الكتاب والسنة، وعلوم الحكمة، وعلم الكلام، وعلم الأخلاق، وعلم النفس وعلى علم الاقتصاد وعلم السياسة (في حدود عصره على الأقل) ثم يكون عارفاً بلباب فن التزكية والإحسان وجوهره وحقيقته، بل يتمكن من درجة الاجتهاد فيه.

لقد كان كل ذلك يتطلب أن يصدر من قلم إمام القرن الثاني عشر كتاب يفي بهذه الحاجات والمقتضيات، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا إلا من قلم إنسان، هو إنسان- على كل حال- وليس معصوماً، وليس له علم يحيط بجميع العصور والأمكنة والمعلومات ولا يخلو- وإن كان أقل قليلاً- عن طابع عصره وتأثير منهج التعليم والتربية عليه- الذي نشأ وتربى فيه، ولكنه رغم كل ذلك تلميذ المدرسة القرآنية وخريج معهد الحديث والسنة، وترجمانها المبين.

(١) يراجع للتفصيل رسالة المؤلف «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته».

يقول الإمام الدهلوي وهو يذكر دوافع تأليف هذا الكتاب وعوامله:

«إن أدق الفنون الحديثية بأسرها عندي وأعمقها محتدًا وأرفعها منارًا وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى، وأعلاها منزلة وأعظمها مقدارًا، هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام ولمياتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها... إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع»^(١).

دقة الموضوع وخطورته :

ولكن الموضوع الذي يعالج حكم الأحكام الدينية، ويتعرض لمصالحها وأسبابها وعللها موضوع جد دقيق وخطير، فإن أدنى ميل أو إفراط وتفريط فيه، أو سيطرة نزعة خاصة أو تأثير عصر خاص ينأى بذهن القارئ وعقليته بعيداً عن جادة التعاليم النبوية والشرائع السماوية، التي يقصد بها أصلًا وبالذات رضا الله تعالى- والتقرب إلى جنابة الأعلى، والنجاة في الآخرة وينتقل به إلى طريق المصالح المادية، وتنظيم الحياة تنظيمًا فاضلاً، والمنافع المدنية والأغراض والغايات السياسية، وتخرج روح الإيمان والاحتساب^(٢)، من هيكل الجهود والمساعي المبذولة كلياً، أو تضعف وتنكمش وتبقى من غير تأثير ملحوظ.

فعلى سبيل المثال يمكن أن يقال إن الحكمة في مشروعية الصلاة أنها تربية عسكرية جيدة، وأنها تساعد على التنظيم والطاعة للأمير وإقامة الحكومة الإسلامية، وأن الصوم من أنجح الوسائل للصحة البدنية، وأن الزكاة ضريبة واجبة

(١) حجة الله البالغة، ص: ٣.

(٢) الإيمان هو اليقين الكامل على موعود الله- تعالى- والاحتساب هو نية الحصول على رضا الله- تعالى- وثوابه، وهما مصطلحان دينيان وردا في أحاديث كثيرة، منهما قوله صلى الله عليه وسلم: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» (أخرجه البخاري).

في أموال أهل الثراء للفقراء ولها القيمة الاقتصادية والاجتماعية فقط، وأن الحج مؤتمر سنوي عالمي ينظر فيه في المسائل والشاكل التي يواجهها المسلمون والتوصل إلى حلها فحسب.

نظرًا إلى هذه الأخطار والأخطاء (التي تجاوزت حدود الممكنات والمحتملات إلى وقائع وأمثلة حية عملية) لم يكن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدقيقة الخطيرة إلا من يمسك بيده أصول الدين الحنيف والشريعة الإسلامية، ويكون عالمًا بغاية نزول الشرائع الإلهية وبعثة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - وقد تغلغت في أحشائه روح الإيمان والاحتساب وجرت في عروقه ودمائه، وتكونت عقلية وتربيته العلمية في بيئة الكتاب والسنة والإيمان والاحتساب وفي ظلها الفيحاء، ولقد كان الإمام الدهلوي - كما علمنا مما مضى في ترجمة حياته - أجدر شخصية وأقدرها على الكتابة في هذا الموضوع الدقيق الخطير.

الحاجة إلى كتاب مستقل وجهود العلماء المتقدمين:

يذكر الإمام الدهلوي ما بذله العلماء المتقدمون من جهود في هذا الموضوع، فيقول: «وانتهى إمعان المجتهدين إلى تبين المصالح المرعية في كل باب من الأبواب الشرعية، وأبرز المحققون من أتباعهم نكتًا جلية، وأظهر المدققون من أشياعهم جملًا جزيلة، وخرج بحمد الله - تعالى - من أن يكون التكلم فيه خرقًا لإجماع الأمة أو اقتحامًا في عمه وغمه، لكن قل من صنف فيه أو خاض في تأسيس مبانيه أو رتب منه الأصول والفروع»^(١).

(١) حجة الله البالغة، ص : ٣.

وقد أشار الإمام الدهلوي - في هذا الصدد - إلى الإمام الغزالي والعلامة الخطابي وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام - الذين تحتوي كتاباتهم ومؤلفاتهم في مختلف المواضيع على هذه المحتويات والإشارات ^(١) ، وقد استدل الإمام الدهلوي في الرد على دعوى أن الأحكام الشرعية لا تشتمل على المصالح، وأنه ليس بين الأعمال وما جعل الله - تعالى - جزاء لها مناسبة، بتلك الأحاديث النبوية التي تدل على الصلة والمناسبة بين الأعمال ونتائجها وتشير إلى علل بعض الأحكام ومصالحها، كما ذكر أيضًا تلك الأحاديث التي تتضمن بيان الأسباب لمشروعية قرينة من القرب أو عمل من الأعمال، أو تكشف عن أسرار تعيينها وتحديدها، كما قدم أمثلة لأسباب بعض المحرمات والمحظورات وحكمها التي أثرت عن عمر - وغيره من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - ^(٢) ، وفند تلك المزاعم والظنون الخاطئة ورد على المزاعم التي تصف تدوين هذا العلم الدقيق وأداء المهمة الجليلة إما مستحيلًا، أو غير نافع أو صنعًا جديدًا لم يسبق إليه، وبين - بكل وضوح - ما هي تلك الأسباب والعوامل التي حالت دون العناية اللائقة بهذا الموضوع في تلك الآونة ^(٣)

وقد صرح الإمام الدهلوي وهو يبين الحاجة إلى تدوين هذا العلم وحكمته ومصالحته، بأن جماعة من الفقهاء زعموا أنه يجوز رد حديث يخالف القياس من كل وجه فلزم بيان أن الأحاديث الصحيحة كلها توافق العقل والقياس ^(٤) وأن المناهج المتعارضة في مختلف طبقات الأمة، فتغاضى بعضهم عن العقل والقياس

(١) أيضًا، ص : ٦.

(٢) حجة الله البالغة، ص : ٥ - ٦.

(٣) أيضًا ص : ٧.

(٤) حجة الله البالغة

كلياً، وتجاسر بعضهم على التأويل والصرف عن الظاهر حيث خالفت الأصول العقلية، وعدم التوسط والاتزان عند كثير من الجماعات والطبقات في هذا الصدد لا يجعل التدوين الجديد لهذا الفن الدقيق مشروعاً ونافعاً فحسب، بل يقرره خدمة جليلة للدين، وحاجة ماسة من حاجات العصر.

وعدا هذا الشعور بالحاجة، والتجارب العلمية ومقتضيات العصر كان الإمام الدهلوي تلقى بشارات غيبية لإنجاز هذا العمل وإشارة من حضرة صاحب الرسالة - صلى الله على صحابها وسلم - «إلى نوع بيان للدين»، يقول الإمام الدهلوي:

«وجدت عندي ذلك في صدري نوراً لم يزل ينفسح كل حين... ثم رأيت الإمامين الحسن والحسين - رضي الله عنهما - في منام، وأنا يومئذ بمكة كأنهما أعطيانى قلما، وقالوا: هذا قلم جدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(١).

وقد كان ابن خال الإمام الدهلوي، وأخو زوجته، ومرافقه في السفر والحضر وأخص تلامذته الشيخ محمد عاشق الفلتي الذي كان أعرف الناس بعلوم الإمام

(١) طبع كتاب «حجة الله البالغة» أولاً بإرشاد من وزير بوفال ومديرها العالم التقني «مزار المهام» الشيخ جمال الدين (م ١٢٩٩هـ) وعلى نفقته وبعناية الشيخ محمد أحسن الصديقي (م ١٣١٢هـ) في المطبع الصديق ببيريلي عام ١٢٨٦هـ. ثم طبع ثانياً بأمر النواب أمير الملك العلامة السيد صديق حسن خان (م ١٣٠٧هـ) في مطبع بولاق بمصر عام ١٢٩٦هـ، وصدرت له من مصر طبعتان أخريين، ثم صدرت طبعة مصورة عن الطبعة المصرية بعناية الشيخ عطاء الله حنيف من المكتبة السلفية بلاهور عام ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٨م. وقد صدرت أخيراً في مصر طبعته الرابعة ونشرت بتحقيق الفاضل المصري المعروف وأحد القادة الإخوانيين السيد سابق ومراجعتها، ومقدمته، وترجمة المؤلف الدهلوي من دار الكتب الحديثية بالقاهرة ومكتبة المثني ببغداد، ولكن لم يحظ الكتاب في التصحيح والتعليق، وتخريج الأحاديث، وبيان الإشارات حتى الآن ما يستحقه من خدمة علمية.

الدهلوي ومعارفه وفضائله يلج- من بين أصحابه وتلامذته- على الإمام الدهلوي ويصر عليه لإنجاز هذا العمل وتحقيقه^(١).

وبالجملة فإن الله- تبارك وتعالى- وفق الإمام الدهلوي للقيام بهذه المهمة العظيمة، وصدر من قلمه هذا الكتاب الجليل ووصل إلى أيدي العلماء والمحققين.

الموضوعات الأساسية التمهيدية التكليف والمجازاة :

لقد تناول الإمام الدهلوي في بداية الكتاب تلك البحوث والمواضيع التمهيدية الأساسية التي تثبت الحاجة إلى الهداية الربانية والتعاليم السماوية وبعثة الأنبياء والمرسلين، وتعليمهم وتربيتهم وتزكيتهم، والمبحث الأساسي والأصولي الأكبر فيه، هو المبحث الذي ذكره بعنوان «باب سرّ التكليف» الذي أثبت فيه أن «التكليف»^(٢) إنما هو إحدى المقتضيات الطبيعية للنوع البشري، فإن الإنسان يسأل بلسان استعداده وصلاحيته أن يفرض عليه ما يناسب قوته الخاصة ثم يتأب عليه، ويحرم عليه الاستغراق في القوة البهيمية (التي أودعت فيه) ويعاقب عليه^(٣)، وتتجلى في هذا الصدد دراسة الإمام الدهلوي الدقيقة الواسعة للنوع الإنساني والحيوانات والنباتات، كما تتجلى معرفته بعلوم الطبيعة والطب وعلم النباتات، وقد أثبت الإمام الدهلوي- عقلياً- أن ما يمتاز به الإنسان من الحيوانات والنباتات وما أودع فيه من الاستعدادات والصلاحيات والمقتضيات الفطرية، كلها تطلب- بلسان حالها-

(١) حجة الله البالغة، ص : ٤.

(٢) أي تكليف الله- تعالى- عباده بالعمل بأحكامه وأوامره والاجتناب عن محرماته ونواهيه، وقد عبر عنه في القرآن الكريم بالأمانة (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) (سورة الأحزاب: ٧٢) وانظر تفسيرها في «حجة الله البالغة» ص : ١٩.

(٣) أيضاً، ص : ٢٠.

«التكليف الشرعي» والهداية الربانية، ويعبر الإمام الدهلوي عن ذلك بألفاظ «التكفف الحالي» البليغة ويزيد عليها «التكفف العلمي».

إنه يرى أن الإنسان يملك - عدا قوتي العقل والنطق - شيئين آخرين وهما: «زيادة القوة العقلية» و «براعة القوة العملية» فليس الإنسان يمتاز عن غيره بوجود القوة العقلية والقوة العملية فيه، بل إن طبيعته تتطلب - كذلك - التقدم والرقى وعلو الهمة وتسعى نحو الكمال، ولا تشبع من شيء، ويرى الإمام الدهلوي أن خلق الملائكة ووقوع الحوادث العظيمة وإرسال الرسل نتيجة لهذه المطالب الفطرية، وهي مظهر رائع للعناية بهذا النوع والاهتمام به، الذي يشمل نوع البشر كلهم ، وهي من تجليات الربوبية والرحمة الإلهية، أنه يرى أن العبادات والقربات والعمل بالشرائع كل ذلك من المقتضيات النوعية للنوع البشري كأكل السباع للحوم ورعى السبائم للحشيش ، وإتباع النحل لليعسوب ، إلا أن الحيوانات استوجبت تلقي علومها إلهاماً جبلياً ، واستوجب الإنسان كسب علومه كسباً ونظراً أو حياً وتقليداً^(١) .

ثم يصرح الإمام الدهلوي بأن المجازاة على الأعمال كذلك من مقتضيات التكليف ويرى لذلك أربعة أسباب:

- ١- مقتضى الصورة النوعية ٢- جهة المأ الأعلى^(٢) ، ٣- مقتضى الشريعة المكتوبة عليهم ، ٤- مقتضى بعثة الأنبياء ونتيجتها، ولازم قضاء الله - تعالى -

(١) أيضاً، باب انشاق التكليف من التقدير، ص : ٢٠-٢٤.

(٢) لقد تحدث الإمام الدهلوي في مبدأ الكتاب عن عالم المثال والمأ الأعلى، إذ أنه تتكرر الإحالة والإشارة إليهما في كلامه كثيراً، ويصعب فهم كثير من الآيات والأحاديث بدون التعرف عليهما، أنظر ص: ١٣-١٥.

بالنصر له والتأييد^(١)، ثم إنه يوجد لأجل اختلاف الجبلية والطبائع في بني البشر اختلاف وتفاوت في الأعمال والأخلاق ودرجات الفضل والكمال، وقد ذكر الإمام الدهلوي في هذه المناسبة ثمانية صور لاجتماع «الملكية» و «البهيمية» ونسبتها في الغلبة والضعف ونوعية العلاقة بينها (التي يعبر عنها بمصطلحي «التجاذب» و «الاصطلاح» وخواصها، وذكر ما يرجح منها، وإن هذا البحث والتضريح من أمثله ذكاء الإمام البالغ وقوة استقرانه ودقته ومن خصائص هذا الكتاب وميزاته^(٢)، وتتجلى فيه الدراسة المعمنة الدقيقة للفطرة الإنسانية وأوضاعها وأحوالها.

أهمية الأعمال وأثارها :

يتناول الإمام الدهلوي مبحث أهمية الأعمال^(٣) وتأثيرها على الملكات الإنسانية والأشكال التي ترتب أثارها فيها في الدنيا والآخرة، يقول: «وبالجملة فتؤثر الأعمال حينئذ تأثير العزائم والرقى المأثورة عن السلف بهيئتها وصفتها والله أعلم^(٤)».

وهكذا تعد هذه المباحث الأولية التمهيدية ذهن القارئ للنظر في المباحث التالية التي تقوم على أساس إدراك المقتضيات النوعية وأسباب التكاليف الشرعية وما يترتب عليها من مجازاة ونتائج ومقتضيات الربوبية والرحمة وأهمية الأعمال وصلتها بهيئة الناس الاجتماعية وعلاقتها بالحياة البشرية، والاعتراف بهذه الحقائق الغيبية والعوالم والأشياء غير المرئية.

(١) أيضًا، ص : ٢٥.

(٢) أيضًا، ص : ٢٥.

(٣) أيضًا، ص : ٢٩-٣٢.

(٤) حجة الله البالغة، ص : ٣٠.

الإرتفاقات :

يخيل إلينا من دراسة «حجة الله البالغة» أن أنظار الإمام الدهلوي البعيدة الغور ودراسته العميقة الموضوعية للأوضاع المتطورة والظروف المتغيرة تفتنت (بفضل التأييد الإلهي) إلى أنه قد أظل ذلك العهد الذي سوف يحاول فيه الناس الكشف عن أسرار الأحكام الشرعية لأسيما تعاليم السنة النبوية وإرشاداتها وحكمها ومصالحها، ويستطلعون فوائدها العملية والاجتماعية والمدنية ويبغون - في الجانب الآخر - التعرف على الصلة الحقيقية بين الدين والحياة، ويحاولون فهم التعاليم الدينية والهداية السماوية في المحيط الواسع للحياة، وفي سياق العلاقات المشتركة بين الناس وصلة الأسباب بالنتائج، والاطلاع على منافعها وفوائدها.

لذلك بدأ الإمام الدهلوي كتابه «حجة الله البالغة» الذي ألف أصلاً وبالذات في بيان حكم الشريعة الإسلامية وأسرارها وشرح الحديث والسنة شرحاً عقلياً علمياً، - قبل بدنه بالحديث عن النظام التشريعي الذي يشتمل على تلك الأوامر والنواهي التي تتعلق - أصلاً - بالثواب والعقاب والنجاة والفلاح في الآخرة، والتي عبر عنها الإمام الدهلوي في اصطلاحه بـ«مبحث البر والإثم»، بدأ كتابه بتلك المباحث والمواضيع التي تتعلق بالنظام التكويني في العالم والحياة البشرية، والتي تتكون بالالتزام بها هيئة اجتماعية صحيحة ومدنية صالحة، وقد استخدم الإمام الدهلوي لذلك مصطلح «الإرتفاقات»^(١) ، الذي لم يستخدمه

(١) جاء في «لسان العرب» تحت أصل «رفق»: يقال للمتطيب مترفق ورفيق والرفق والمرفق، ما استعين به، وقد ترفق به وارتفق، وفي التنزيل: (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرِيقًا) (الكهف: ١٦) وهو ما ارتفعت وانتفعت به، وقد ترفق عليه وارتفق: توكأ، وقال عز وجل: (أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضراً من سندس وإستبرق مكنين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت

قبله - في حدود علمي - المتكلمون والفلاسفة وعلماء الاجتماع المسلمون
(بهذا الوضوح والتسلسل والاستمرار على الأقل).

أهمية الارتفاق:

يراد بالارتفاق - عند الإمام الدهلوي - اشتراك أفراد الناس في الانتفاع بعضهم من بعض والتعاون فيما بينهم والمشاركة في العمل والتدابير النافعة لإنشاء حياة مدنية معتدلة متزنة، وهكذا عالج الإمام الدهلوي ناحيتي السعادة البشرية الفردية والاجتماعية والحياتين الدنيوية والأخروية، ويرى الإمام الدهلوي أن هذا النظام التكويني لا يلزم أن يوافق النظام التشريعي الذي بعث به الأنبياء فحسب، بل يلزم أن يمدده ويتعاون معه، ويخدم أغراضه ومقاصده، وهو أول من أثبت - من بين علماء الأخلاق والمتخصصين في علم الاقتصاد - صلة عميقة قوية بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد، وإنه عندما تنقطع هذه الصلة فإن الاقتصاد والأخلاق يعاني كل منهما أزمة شديدة تترك آثارها على الدين والأخلاق، والحياة مطمئنة الآمنة، والعلاقات الطيبة القائمة بين أفراد الناس والمدنية والحضارة، ويرى أن أخلاق الناس الاجتماعية تعاني من الهبوط والفساد عندما يؤدي بهم الجور والعسف إلى ضائقة اقتصادية أو أزمة اقتصادية، وعندئذ يظل الإنسان - الذي أودع الله - فيه الملكات الروحية السامية وإمكانات الرقي الكثيرة - في حيرة واضطراب للحصول على لقمة عيش شأن الثور والحمار. ويحرم من جميع السعادات ومدارج الرقي والكمال.

مُرْتَفَقًا (الكهف : ٣١) وترافق القوم وارتفعوا: صاروا رفقاء ، (انظر : «لسان العرب»
«رفق»).

أهمية الحياة المدنية والاجتماعية وأشكالها.

يعرف الإمام الدهلوي بالحياة المدنية والاجتماعية (التي يصف مركزها بـ«المدنية») تعريفاً علمياً لم يسبق إلى أفضل وأجمع منه (لدى الحكماء والمؤلفين) إلى هذا العصر، يقول في باب «سياسة المدنية»: «وأعني بالمدنية جماعة متقاربة تجري بينهم المعاملات، ويكونون أهل منازل (1) شتى» .

ويعرف بسياسة المدنية بما يلي:

«هي الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة» (2) .
ثم يزيد تعريف هذه الحياة المدنية أو «المدينة» بيانياً، فيقول: «المدينة شخص واحد من جهة ذلك الربط، مركب من أجزاء وهيئة اجتماعية» (3) .
وينقسم «الارتفاق» عنده إلى قسمين:

١ - الارتفاق البدائي الضروري الذي يتمكن منه أهل البادية أيضاً.

٢ - الارتفاق الاجتماعي أو الراقى الذي يحصل لأهل المصر (أهل المدينة).

ويأتي بعد هذين القسمين القسم الثالث، وهو قسم السياسة والإدارة، ثم ينتج عن ذلك قس رابع وهو قسم الخلافة العامة، ويؤكد الإمام الدهلوي في «الارتفاق الرابع» على حفظ العلاقات المشتركة بين أهل «الأقاليم» (أي مناطق البلاد النائية البعيدة) والحاجة إلى هذه العلاقة (بين مختلف المناطق) كحاجة العلاقة بين أفراد مدينة واحدة في حالتها البدائية المحدودة (4) .

(١) حجة الله البالغة ، ص : ٤٤ .

(٢) أيضاً ص : ٤٤ .

(٣) أيضاً .

(٤) أيضاً ، ص : ٤٧ .

صور المكاسب ووجوه المعاش الممودة والمذمومة :

ولا يغفل الإمام الدهلوي أثناء تعرضه لبيان وجوه المعاش ووسائل الكسب المختلفة ذكر الوسائل المنافية للأخلاق والفطرة السليمة، يقول:

«بقيت نفوس أعييت بهم المذاهب الصالحة، فأنحدروا إلى أكساب ضارة بالمدينة كالسرقة والقمار والتكذي»^(١).

وقد صدرت من قلم الإمام الدهلوي في صدد الارتفاقات حقائق تشير إلى عمق تفكيره وبعد نظره في تاريخ رقي البشرية والاجتماع والمدنية وازدهارها وهبوطها وانحطاطها، يقول: «كلما رقت النفوس وأمعت في حب اللذة والرفاهية تفرعت حواشي المكاسب واختص كل رجل بكسب»^(٢).

ويذكر الإمام الدهلوي في ما يضر بالحياة المدنية أن يتفق أهل المدينة على وسيلة واحدة للكسب، مثل أن يشتغل كلهم بالتجارة ويدعوا الزراعة، أو يكسبوا قوتهم عن طريق الحروب والغارات، إن الزراعة - عنده - كالطعام، والصناعة والتجارة والنظام والإدارة كلها كالملح، وقد صرح في هذا الصدد بحقيقة لطيفة دقيقة، يقول: « وغالب سبب خراب البلدان في هذا الزمان شيان:»

١ - أحدهما: تضييقهم على بيت المال.

(١) أيضًا ص : ٤٣.

(٢) وقد ذكر الإمام الدهلوي في هولاء المضييقين الذين يصبحون كلاً على بيت المال ويتعودون التمسك بالأخذ منه ويملكون الإقطاعات ويعتادون الجوائز والصلاة والكسب المجاني بدون أي خدمة للدولة في البلاد، الغزاة والعلماء والزهاد والشعراء الذين يدعون حقوقهم في بيت المال دون القيام بمصلحة البلاد، وقد دخل في ذلك ذلك النظام الإقطاعي الذي كان قد أبحف بمالية البلاد، وأوجد جنذاً من الطاعمين الكاسين الذين يأكلون ويعيشون دون مقابل من جهد، ويقدر من ذلك بصيرة الإمام الدهلوي السياسية ومعرفته العميقة لأسباب سقوط الدولة المغولية.

٢- والثاني: ضرب الضرائب الثقيلة على الزراع والتجار والمتحرفة والتشديد عليهم.

ثم يقول في آخر هذا المبحث: «فلينبه أهل الزمان لهذه النكته»^(١).

ويذكر الإمام الدهلوي في ضمن العوامل التي تؤدي إلى الفساد في المجتمع والمدنية، كثرة أسباب اللهو والتسلية، التي تجر إلى الغفلة عن المعاش والمعاد كليهما ومن أمثلة ذلك الانصراف إلى لعب الشطرنج، والإكثار من القنص والصيد، واقتناء الحمام وغير ذلك^(٢). كذلك الغفلة عن الجرائم الخلقية والتغاضي عنها، واحتمال تلك الأفعال التي لا يتحملها أصحاب الفطرة السليمة لأنفسهم، تلحق الأضرار البالغة بالمدنية، وتكون سبباً من أسباب سقوط الدول والحكومات^(٣).

السعادة وأصولها الأربعة :

والمبحث الرابع في الكتاب هو «مبحث السعادة»، وقد شرح فيه أن الحصول على السعادة من أهم حاجات البشر بل هي أهمها على الإطلاق، وأنها لا تحصل إلا بتهديب النفس وإخضاع القوة البهيمية للقوة الملكية^(٤).

وللسعادة- عند الإمام الدهلوي- أربعة أصول، وقد بعث لها الأنبياء والرسول، وتفصيلها وبيانها هي الشرائع السماوية، وأنها- في الحقيقة- عناوين جامعة لشعب الأديان والشرائع الأساسية، ومباحثها الأولية ووسائل مؤثرة قوية لتحقيق مقاصد البعثة وتكميل غاياتها، وهذه الأصول الأربعة كما يلي:

(١) حجة الله البالغة، ص: ٤٥.

(٢) أيضاً، ص: ٤٩.

(٣) حجة الله البالغة، ص: ٥٠.

(٤) أيضاً ص: ٥١.

- ١ - الطهارة (وهي الطهارة البدنية التي تعد الإنسان للتوجه إلى الله - تعالى - والعلاقة به).
- ٢ - الإخبات إلى الله - تعالى -.
- ٣ - السماحة (وهي مكارم الأخلاق ومعالي الأمور).
- ٤ - العدالة^(١) (وهي ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال التي يقام بها نظام المدينة والحي بسهولة).

وهكذا ألقى الإمام الدهلوي ضوءًا كاشفًا على أسس كمال الشخصية الإنسانية وعلاقتها مع الله - تعالى - وتكوين مجتمع صالح متضامن، وهي من مقاصد الشرائع السماوية وبعثة الأنبياء والرسول - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

ثم شرح كيفية الحصول على هذه الخصال الأربعة وطريق التحلي بها^(٢)، ثم تناول بيان الحجب التي تمنع وتحول دون ظهور الفطرة الأصيلة، وقسمها ثلاثة أقسام:

- ١ - حجاب الطبع (أي غلبة الأهواء والمتطلبات البشرية النفسانية).
 - ٢ - حجاب الرسم: (تأثير البيئة والظروف الخارجية الضارة).
 - ٣ - حجاب سوء المعرفة^(٣): (تأثير التعليم والتربية والعقائد الفاسدة).
- ثم بين كيفية معالجة هذه الحجب ورفعها وإزالتها^(٤).

(١) يراجع تعريف هذه الأصول في ص: ٥٤ من الكتاب.

(٢) أيضًا، ص: ٥٥ - ٥٦.

(٣) انظر للتفصيل: ص: ٥٦، من المصدر السابق.

(٤) انظر شرح هذه الحجب وطرق إزالتها في ص: ٥٧ - ٥٨.

العقائد والعبادات :

يبدأ الموضوع الحقيقي للكتاب ، وهو «المبحث الخامس» منه بـ«مبحث البر والإثم» ، وهو - في حقيقة الأمر - موضوع الكتاب الأصيل وغايته التي ألف لها^(١) .

وقد تناول الإمام الدهلوي - أولاً - التوحيد من «أصول البر» ، لأنه أصل الإخبات والإجابة التي هي أكبر وسيلة للحصول على السعادة، وقد ذكر الإمام الدهلوي - في هذا الصدد - أربع مراتب للتوحيد وبين حقيقة إشراك المشركين العرب^(٢) ، وينتقل بعد الحديث عن التوحيد إلى الإيمان بصفات الله - تعالى - والإيمان بالقدر وتعظيم شعائر الله، وأهم هذه الشعائر وأبينها - عند الإمام الدهلوي - القرآن الحكيم، والكعبة المشرفة، والنبى الكريم - عليه الصلاة والتسليم - ، والصلاة، ثم يتحدث عن العبادات، والفرائض والأركان، ويبحث عن أسرار الوضوء والغسل وأسرار الصلاة وأسرار الزكاة وأسرار الصوم، وأسرار الحج بصورة إجمالية^(٣) ، وهذه المباحث - رغم أنها كلية إجمالية - تحتوي على نكات ولطائف لا تظفر بها في أي كتاب آخر.

(١) أيضاً ص : ٥٨ .

(٢) مر هذا البحث في الباب الخامس من هذا الكتاب.

(٣) وقد جاء تفصيل هذه الحكم والأسرار في الجزء الثاني من الكتاب حيث بحث فيها في ضوء الأحاديث الواردة في هذه الأبواب.

وعلى سبيل المثال يقول في أسرار الصلاة :

«وأحسن الصلاة ما كان جامعاً بين الأوضاع الثلاثة (القيام ، والركوع، والسجود) مترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ليحصل الترقى في استشعار الخضوع والتذلل وهو ينسجم مع العقل والفترة».

ثم ذكر الإمام الدهلوي وجه عدم الاقتصار في العبادة على التفكير في عظمة الله والمراقبة لجلاله ودوام ذكره (الذي هو طريق الحكماء والرهبان الهناك ، وجرى عليه بعض الصوفية المنحرفين)، وبين أن هذا التفكير والمراقبة كانت تيسر للذين يتفق ذلك وطبيعتهم الخاصة وتنفعهم، وكان بإمكانهم أن يتقدموا ويترقوا عن طريقها، أما الصلاة، فهي المعجون المركب من الفكر المصروف تلقاء عظمة الله بالقصد، وهي نافعة لعامة الناس وخاصتهم، تزيلاً قوي الأثر ولا شيء أنفع علاجاً لغوائل الرسوم (تأثيرات البيئة الفاسدة) منها، ولا شيء في تمرين النفس على انقياد الطبيعة للعقل وجريانها في حكمة مثل الصلاة ^(١).

أما الصوم والحج، فقد جاءت عنهما إشارات في هذا المبحث، ولكن ما سجله الإمام الدهلوي في الجزء الثاني من الكتاب من مقاصده وأسواره وحكمه، لم أقف على مثيله قبل ذلك في أي كتاب، وسيأتي ذكرها في موضعها في الصفحات القادمة

السياسات المليية والحاجة إلى هداة السبل ومقيمي الملل :

عنون الإمام الدهلوي المبحث السادس بـ«مبحث السياسات المليية»، وهو من أهم المباحث في الكتاب ^(٢) ، وقد صرح الإمام الدهلوي في الباب الأول منه - في

(١) حجة الله البالغة ص : ٧٣.

(٢) أيضاً، ص : ٨٣ - ٨٤.

بلاغة ودقة وواقعية- بوجوه حاجة الناس وأسبابها إلى هداة السبل ومقيمي الملل (الأنبياء والرسل) ولماذا لا تكفيهم في هذا الصدد عقولهم العامة وفطرتهم السليمة، ثم بحث في صفات هؤلاء الهداة المرسلين والشروط التي لابد من توافرها فيهم، وأنهم كيف ومتى يستطيعون أن يحققوا مقاصدهم، وينجحوا فيها، ويمتاز هذا الباب عن عامة البحوث والكتابات في كتب علم الكلام حول إثبات النبوة، ويشتمل على الزاد الكافي لإقناع العقول السليمة، الذي لا يتوفر في عامة كتب العقائد وعلم الكلام، والباب الذي يبحث في مكانة النبوة ودورها وخصائصها في هذا المبحث، يدل- دلالة واضحة- على معرفة الإمام الدهلوي بروح الشريعة وحقيقة طبيعة النبوة، ودراسته العميقة للنفس البشرية واطلاعه الدقيق على منابع الأخلاق الباطنة، وقد جاء في هذا الباب بحث مفصل عن أسباب بعثه الأنبياء والرسل أيضاً.

البعثة المقرونة :

يقول الإمام الدهلوي: «وأعظم الأنبياء شأنًا من له نوع آخر من البعثة فتكون بعثته مقرونة ببعثة أخرى، أي أن شعبًا بل أمة بأسرها تبعث مع بعثته ويناط بها واجب الدعوة والتبليغ وتتلقى منه وتستعد بين يديه لتكون واسطة ووسيلة لتعليم الآخرين من الناس وتربيتهم وتزكيتهم، فتكون بعثة النبي بالأصالة، وهي التي تسمى (النبوة) وتكون بعثة الأمة، وتوليها لخدمة الدعوة بالنيابة والوساطة وقد كانت بعثة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه البعثة الجامعة المقرونة، التي أقامت أمة بأسرها لتكون آلة وجارحة تشتغل في خدمة مسئولية النبوة ونشر دعوتها ورسالتها، وقد استعمل لذلك ألفاظ البعثة أو ما في معناها من التعبيرات يقول الله- تعالى:- ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرُ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾ .

وجاء لفظ البعثة -صريحاً- في الأحاديث النبوية، فقد خاطب - صلى الله عليه وسلم - أصحابه الكرام بقوله:

«فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين» (٢) .

وأخص مباحث هذا الباب هو المبحث الذي تناول فيه الإمام الدهلوي سيرة الأنبياء والرسل - عليهم الصلوات والتسليمات - وذوقهم وطبيعتهم ومنهج دعوتهم وأسلوب تبييهم وخطابهم، ويقدر منه دقة نظر الإمام الدهلوي، ودراسته العميقة لخصائص النبوة والأنبياء وتدبره الغانص العميق للقرآن الحكيم (٣) .

إهدار القيم الخلقية والإيمانية ويؤس الإنسانية في المدنيتين الرومية والإيرانية:

لم يكن عهد الجاهلية مختصاً بالعرب الجاهليين، بل كانت هي أزمة اعتقادية وخلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية عالمية شديدة، أهدقت بالدنيا كلها، وشملت بسيط الأرض، ولكن الإيرانيين والروم كانوا قادة هذه الأزمة والمسئولين الأولين عنها، لأن مدينتهم كانت المدنية الراقية التي تعتبر المقياس في عالمهم المعاصر وكان الناس يحذون حذوها، ويقلدونها في كل مكان، وكانت بلادهم ومدنهم الرئيسية الكبيرة، ومجتمعهم أنفسهم أولاً وقبل كل شيء عرضة إن تصوير الإمام الدهلوي لهذا الوضع الجاهلي، وأسبابه التي أشار إليها لم نجد تصويراً أصدق منه وأدق في أي كتاب من كتب التاريخ والسيرة، ولم نجد أي ريشة بارعة لأي عالم

(١) سورة آل عمران ، الآية: ١١٠ .

(٢) انظر «حجة الله البالغة»، ص : ٨٤ .

(٣) أيضاً، ص : ٨٦ .

من علماء فلسفة التاريخ والعلوم العمرانية ترسم مثل هذا التصوير الصادق الدقيق، وهنا يسطر قلم الإمام الدهلوي من روائع البيان، ما يدل على أنه بلغ الذروة العليا في جزالة التعبير وقوة الأداء وحسن الإنشاء^(١).

وننقل فيما يلي ما قاله الإمام الدهلوي في هذا الصدد إذ أنه يقدر منه ما امتاز به من نظرة عميقة في التاريخ وصلاحيّة التوصل إلى لب الحقيقة والاستعداد الموهوب للتحليل الصحيح الدقيق للأوضاع والظروف، يقول الإمام الدهلوي:

«اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونًا كثيرة، وخاضوا في لذّة الدنيا ونسوا الدار الآخرة، واستحوذ عليهم الشيطان، تعمقوا في مرافق المعيشة، وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق، يستنتطون لهم دقائق المعاش ومرافقه، فمزالوا يعملون بها، ويزيد بعضهم على بعض، ويتباهون بها، حتى قيل: أنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجًا قيمتها دون مائة ألف درهم، أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن وحمّام وبساتين، ولا يكون له دواب فارهة، وغلمان حسان، ولا يكون له توسع في المطاعم وتجميل في الملابس، وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع، وتولّد من ذلك داء عضال، دخل في جميع أعضاء المدينة، وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم، وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه عمومًا وهمومًا لا أرجاء لها، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم، والتصديق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم

(١) هذه القطعة نموذج رائع لقوة البيان وسلاسة التعبير وجمال الأداء، ولذلك اختارها المؤلف «لمختاراته في الأدب العربي» وضمها كنموذج رائع إلى مجموعة القطع الأدبية.

بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضج والدياس والحصاد ولا تقتني إلا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من الغناء حتى صاروا لا يرفعون رءوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً، ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهمله دينه»^(١).

مباحث نافعة أخرى

ثم يأتي مبحث أن أصل الدين واحد، وأن اختلاف المناهج والشرائع إنما هو مراعاة لعصر خاص وقوم بعينهم. ثم يشرح أسباب المواخذه على المناهج رغم أن أصل الدين واحد.

وبعد مباحث جانبية في أسرار التيسير والترغيب والترهيب وغيرهما، يثبت الإمام الدهلوي الحاجة إلى دين ينسخ جميع الأديان والشرائع السابقة، وأنه كيف يمكن حفظ هذا الدين من التحريف، وما هي المنافذ والأبواب التي يدخل منها التحريف وما هي الصور والأشكال التي يتجلى فيها. وما هي القوالب التي تتفحصها ، وما هي الطرق التي اختارتها الشريعة لسد ذرائعه والحيلولة دونه، وما هي التدابير والأحكام التي أصدرتها لأجل ذلك. ثم بين - ف تفصيل ووضوح - ما كانت عليه الجاهلية في عهد البعثة التي قام نبينا صلى الله عليه وسلم لإصلاحها وإقامة اعوجاجها.

مكانة الحديث والسنة وموقف الأمة منهما

يأتي المبحث السابع في الكتاب بعنوان: «مبحث الشرائع من حديث النبي صلى الله عليه وسلم» وترد فيه أبحاث تتعلق - مباشرة - بفهم الحديث الشريف والسنة النبوية

(١) حجة الله البالغة، باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم، ج: ١، ص: ١٠٤-١٠٧.

المشرفة، واستنباط المسائل منها، وأقسام العلوم النبوية، وكيفية تلقي الشريعة من النبي ﷺ وطرقها وطبقات كتب الحديث، وطرق استفادة المطالب والمعاني الشرعية من الكتاب والسنة، والقضاء في الأحاديث المختلفة جمعاً وتطبيقاً وترجيحاً وغير ذلك، ويبحث الإمام الدهلوي - في هذا الصدد - في غاية من الدقة والإتقان في اختلاف الصحابة والتابعين في المسائل والفروع، ويذكر أمثلة لذلك، ثم يتعرض لاختلاف المذاهب الفقهية، واختلاف أهل الحديث وأصحاب الرأي والفرق بينهما، ثم يشرح موقف الناس خاصتهم وعامتهم، - قبل القرن الرابع وبعده - من الاستفتاء في المسائل، وسؤال العلماء والعمل بالأحكام الشرعية، ويفيض في هذا المبحث ويوضحه في تفصيل وهو يشتمل على أبحاث دقيقة عميقة، يصعب العثور عليها في أي كتاب آخر من كتب أصول الفقه أو علم الكلام.

أسرار الفرائض والأركان وحكمها:

لقد بحث الإمام الدهلوي في الأحاديث الواردة في أبواب العقائد، والعبادات والمعاملات، والإحسان والتزكية، والمقامات والأحوال، وطرق كسب المعاش، والتبرع والتعاون، وتدبير المنزل، والخلافة والقضاء والجهاد، والأطعمة، والأشربة، واللباس والزينة، وآداب الصحبة والاجتماع، وبحث أخيراً في الفتن والملاحم وأشرار الساعة، وقد عرض - في هذا الصدد - خلاصة طيبة للسيرة النبوية - صلى الله على صاحبها وسلم - وقد شرح أسرار هذه الأبواب المختلفة بأسلوب لا تنقطع فيه صلة هذه المسائل والأحكام بالحياة والمدنية وعلم الأخلاق، وهذا هو - في الحقيقة - الموضوع الأساسي المحوري للكتاب، وقد كان الإمام الدهلوي يهدف إلى أن تدرس الأحاديث الشريفة في ضوء هذه الأسرار والحكم مع ربطها وإحكام صلتها بالأعمال والأخلاق والمدنية والاجتماع، والسعادة الإنسانية والعلاقات المشتركة بين بني البشر حتى يكون لها تأثير مطلوب على الحياة والعمل

والأخلاق والمدنية والاجتماع، ويثبت موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح، وحتى لا تنتهى أي فرصة للمعترضين المنتقسين في اعتراضهم على الأحاديث، والحط من شأنها وتقليل قيمتها وفائدتها وانتقاص أهميتها والحاجة إليها (وهو الذي كانت تفرسته بصيرة الإمام الدهلوي، وتفطن إليه بعد نظره وتفكيره الواقعي) وإيجاد الاضطراب العقلي والفكري فيما يتعلق بها، وأن ما سطره الإمام الدهلوي في موضوع الأركان الأربعة لا يجاريه فيه أحد من المؤلفين، وهو من خصائص «حجة الله البالغة» ومزاياه، ونورد فيما يلي شيئاً مما قاله الإمام الدهلوي في ما يتعلق بمقاصد الصوم والحج وأسرارهما وأشكالهما الشرعية الإسلامية وحكمها ولطائفها. يقول وهو يتحدث عن الصوم وحكمة المقدار المحدد له وتحديد أعداد الصيام (وهو ما يختص بالشرعية الإسلامية) وأحكامه ومسائله الشرعية:

(لم يخير الناس في عدد الصوم ومقداره) لأن في ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتسلل، وسدّاً لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإخماً لما هو من أعظم طاعات الإسلام^(١).

ثم يقول وهو يذكر مقداره وعدده: «ثم يجب تعيين مقداره لئلا يفرط أحد فيستعمل منه مألأ ينفعه وينجع فيه، أو يفرط مفرط فيستعمل منه ما يوهن أركانه ويذهب نشاطه ويفقه نفسه ويزيره القبور، وإنما الصوم ترياق يستعمل لدفع السموم النفسانية مع ما فيه نكاية بمطية اللطيفة الإنسانية ومنصتها، فلا بد من أن يتقدر بقدر الضرورة^(٢)».

(١) حجة الله البالغة، ج: ٢، ص: ٤٩ - ٥٠.

(٢) أيضاً، ص: ٤٩.

ثم يقارن بين قسمين من الصوم (قسم يمكس فيه عن كل الطعام والشراب وكل ما ينافي الصوم اجتناباً كلياً، وقسم لا يترك فيه إلا بعض الأشياء) ويرجح القسم الأول منه، ويبين فضله في ضوء التجربة النفسية والتحليل العلمي علم النفس يقول:

«إن تقييل الأكل والشرب له طريقان: ١- أحدهما: أن لا يتناول منهما إلا قدرًا يسيرًا ، ٢- والثاني: أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات زائدة على القدر المعتاد ، والمعتبر في الشرائع هو الثاني لأنه يخفف وينفخ ويذيق بالفعل مذاق الجوع والعطش، ويخلق البهيمية حيرة ودهشة، ويأتي عليها إتيانًا محسوسًا والأول إنما يضعف ضعفًا يمر به ولا يجد بأنا حتى يدنفه، وأيضًا فإن الأول لا يأتي تحت التشريع العام إلا بجهد، فإن الناس على منازل مختلفة جدًا يأكل الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين والذي يحصل به وفاء الأول هو إجحاف الثاني»^(١).

إنه يصرح بأنه لا بد في هذا التعيين وتحديد المواعيد من التوسط والاعتدال، يقول: «ثم يجب أن تكون تلك المدة المتخللة غير مجحفة ولا مستأصلة كثلاثة أيام بلياليها، لأن ذلك خلاف موضوع الشرع ولا يعمل به جمهور المكلفين»^(٢).

وما قاله الإمام الدهلوي عن الحج يعتبر بحثًا ممتازًا فريداً، يقول: «ومنها (أي من مقاصد الحج وغاياته) موافقه ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم، وإسماعيل - عليهما السلام - فإنهما إماما الملة الحنيفية ومشرعاها للعرب، والنبي ﷺ بعث لتظهر به الملة الحنيفية وتعلو به كلمتها، وهو قوله - تعالى - : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ

(١) أيضًا، ص: ٤٩.

(٢) أيضًا.

هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿١﴾ . فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إماميها كخصال الفطرة ^(٢) ومناسك الحج، وهو قوله صلی اللہ علیہ وسلم :

«فَقُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إرْثٍ مِنْ إرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» ^(٣) .

ويذكر لها حكمة أخرى، فيقول: «كما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليستميز الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد، وليرتفع الصيت وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم، فكذا الملة تحتاج إلى حج ليميز الموفق من المنافق وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجًا، وليرى بعضهم بعضًا، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والتراني» ^(٤) .

ويقول: «وإذا جعل الحج رسمًا مشهورًا نفع عن غوائل الرسوم ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة والتحضيض على الأخذ بها» ^(٥) .

ويقول في موضع آخر:

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨ .
(٢) والمراد بخصال الفطرة الخصال العشر، وهي قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة وانتقاص الماء يعني الاستنجاء، أخرجه أبو داود برواية عائشة- رضي الله عنها- قال الراوي ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة، وقد صرح القاضي عياض والإمام النووي إنها الختان.

(٣) حجة الله البالغة، ج: ٢، ص: ٥٦ .

(٤) أيضًا ج: ١، ص: ٧٦ .

(٥) أيضًا ج: ١، ص: ٧٦ .

«ومنها (أي من مقاصد الحج) تحقيق معنى العريضة، فإن لكل دولة أو ملة اجتماعًا يتوارده الأقباصي والأداني ليعرف فيه بعضهم بعضًا، ويستفيد أحكام الملة، ويعظموا شعائرها، والحج عريضة المسلمين وظهور شوكتهم واجتماع جنودهم وتنويه ملتهم، وهو قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾^(١).

شمول الكتاب وإحاطته:

إن من مزايا هذا الكتاب وخصائصه أنه يشتمل - عدا المباحث المتعلقة بالفقه والحديث والعبادات والمعاملات - على أبواب تدبير المنزل والخلافة والقضاء وأبواب المعيشة وآداب الصحبة التي تتعلق بالأخلاق والاجتماع والمدينة والاقتصاد ولا يتوقع مثل هذا البحث فيها في عامة الكتب الفقهية والكلامية.

الإحسان والتركية :

زد على ذلك أن الإمام الدهلوي قدم نظاماً مرتباً منقحاً للإحسان والتركية يستطيع الإنسان بسلوكه على دربه والعمل به أن يبلغ أعلى مدارج الرقي والكمال، ومراتب الولاية وغاية الأحوال والمقامات، وقد امتد هذا الباب من الكتاب على الصفحات من ٦٦ إلى ص / ١٠١. وقد بحث فيه الإمام الدهلوي عن تلك الطرق والوسائل للإحسان التي وردت في الأحاديث الصحيحة واكتفى بمجرد التأكيد على روح الاحتساب والاستحضار، والنية والعزيمة والكيفيات الباطنية القلبية والاهتمام بها، واقترح علاج الأمراض والعلل الروحية بتلك الطرق المشروعة والفرائض والعبادات والأدعية والأذكار التي صح نقلها، كما بين طرق العلاج للأخلاق

(١) سورة البقرة، الآية : ١٢٥.

المذمومة الرذيلة وطرق اكتساب الأخلاق المحمودة الفاضلة بالنصوص الثابتة في الكتاب والسنة.

وقد أورد في هذا المبحث صيغ الأذكار والأدعية الماثورة، وشرح طريق الدعاء المقبول وكيفيته وشروطه وآدابه، وقد أكد فيه على القيام بتلبية مقتضيات الطبيعة وحاجات الحياة الإنسانية والأعمال الدينية بالاحتساب واستحضار النية الصالحة ووضح الفرق بين تأثيرها وكيفيتها بالاحتساب، وبين ذلك مع الغفلة عن الاحتساب يقول:

«اعلم أن النية روح والعبادة جسد ، ولا حياة للجسد بدون الروح، والروح لها حياة بعد مفارقة البدن، ولكن لا يظهر آثار الحياة كاملة بدونه، ولذلك قال الله - تعالى - : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما الأعمال بالنيات». ثم يعرف النية بهذه الألفاظ الجامعة: «وأعنى بالنية المعنى الباعث على العمل من التصديق بما أخبر به الله - تعالى - على السنة الرسل من ثواب المطيع وعقاب العاصي، أو حب امتثال حكم الله فيما أمر ونهى»^(٢)

وقد أورد الإمام الدهلوي في آخر هذا الباب أحاديث منتقاة تتعلق بانتحلي بالأخلاق الفاضلة وأداء حقوق العباد وحسن الصحبة والجوار، التي يستطيع الإنسان بالعمل بها أن يصل إلى أقصى درجات التزكية والإحسان، ثم تناول بيان تلك الأحوال والمقامات التي تحصل للسالك نتيجة التزكية والإحسان، كما أنها تكون

(١) سورة الحج ، الآية : ٣٧.

(٢) حجة الله البالغة ، ج : ٢ ، ص : ٨٣ - ٨٤.

نتيجة النور في الباطن، وصحوة القلب وصلاحة ، وزكاء النفس وطهارتها
ومرضاة الله - تعالى - وتأيد الملأ الأعلى واستبشارهم.

الجهاد :

ويشتمل هذا الكتاب على باب مستقل حول الجهاد^(١) ، وقد بدأه الإمام الدهلوي
بهذه الكلمات المثيرة المنبهة، التي لا يقولها إلا عارف خبير يملك بصيرة نافذة ونظرة
ثاقبة في تاريخ الديانات والملل وأهداف خلق الكائن الإنساني وغاياته، والنظام المطلوب
لسدى خالق الكون، يقول: «اعلم أن أتم الشرائع وأكمل النواميس هو الشرع الذي يؤمر فيه
بالجهاد».

ثم شرح ذلك وبينه وأثبتته بالعقل والنقل، ثم ذكر أسباب فضل الجهاد، وأصوله
وضوابطه^(٢)

وبالجملّة فإن هذا الكتاب بشموله وعمقه، وتمثيله الواسع المتسق المترابط
للدين والشريعة، ولمنات من النكات واللطائف والتحقيقات النادرة - التي تنبث على
مواضع متفرقة من الكتاب - يحتل مكانة ممتازة فريدة في المكتبة الإسلامية
الزاهرة ويصدق ما قيل : «كم ترك الأول للأخر». وقد صدق العلامة شبلي النعماني
إذ قال في كتابه: «علم الكلام»:

«إن الاحتياط العقلي الذي أصيب به المسلمون بعد ابن تيمية وابن رشد بل
في عهدهما كذلك ، لم يكن قد بقى أمل - نظراً إلى الاحتياط العام - في ظهور نابغة
يملك القلب البصير والعقل الذكي، ولكن أبت القدرة الإلهية إلا أن تتجلى، فإذا
بالإمام ولي الله الدهلوي يولد في العهد الأخير الذي كان الإسلام فيه في محنة

(١) حجة الله البالغة ، ج: ٣ ، ص: ١٧٠ - ١٧٨ .

(٢) أيضاً ، ص: ١٧٠ .

وأزمة عقلية علمية، وقد تضاءلت أمام دقائقه ونكاته مآثر الغزالي والرازي وابن رشد».

ويزيد قائلاً: «لم يولف الإمام الدهلوي في علم الكلام كتاباً مستقلاً، ولذلك فلا يناسب عدّه في زمرة المتكلمين، ولكن كتابه «حجة الله البالغة» الذي كشف فيه عن أسرار الشريعة وحقائقها - هو روح علم الكلام ومحوره».

ويقول المحقق الفاضل الشيخ عبد الحق الحقاني في مقدمة ترجمته لـ «حجة الله البالغة» المسمّاة بـ «نعمة الله السابعة»:

إن الفن الذي ألف فيه هذا الكتاب، لم يولف فيه قبله شيء ولم يدون في مكان، فموضوع هذا الفن هو النظام التشريعي المحمدي من حيث المصلحة المفيدة وغايته أن يعلم الإنسان أن أحكام الله - تعالى - ورسوله لا عسر فيها ولا ضيق، ولا تخالف الفطرة السليمة حتى يطمئن بها الإنسان، وينجذب إليها قلبه ثقةً منه بأنها أحكام توافق الفطرة وتتبنى عليها، ولا يقع بتشكيك المشككين في الشبهات، وحدّه أنه العلم الذي تعرف به حكم الأصول الدينية والأحكام الشرعية ومبادئه جميع العلوم (المتعلقة بالحياة البشرية) ^(١)



(١) مقدمة «نعمة الله السابعة».

وبعد هذه الجولة في بعض تراث الشيخ ولي الله الدهلوي الحديثي ، نخلص إلى جملة من النتائج :

أولاً : كشف البحث عن الخلفية العلمية للشيخ الدهلوي في الحديث وعلومه ، وعن الجهود العظيمة التي بذلها في خدمة السنة النبوية والعناية بها.

ثانياً : أبان البحث عن جوانب كثيرة من الإبداع والشمولية في أعمال الدهلوي الحديثية ، وعن المنحى الإجتهادي فيها.

ثالثاً : أبرز البحث مدى تفاعل الشيخ الدهلوي مع عصره ، وتوظيفه لعلوم الحديث ، وذلك لخدمة الفقه الإسلامي وغيره من علوم الشريعة.

رابعاً : للعلامة الدهلوي بعض الآراء والاجتهادات الحديثية تعد قمة في التحقيق العلمي والتحرر من ربة المذهبية المتعصبة . ومن ثم نرى ضرورة تناول هذا التراث الضخم للشيخ الدهلوي في بحوث ودراسات أكاديمية تخصصية تستوعب كل آرائه واجتهاداته الحديثية بالدراسة والتحليل والتقويم.

رحم الله الشيخ ولي الله الدهلوي ، وتقبله في الصالحين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



قائمة المصادر والمراجع

- ١- الإمداد في مآثر الأجداد . للشيخ الدهلوي . ط الهند - بالفارسية ، و مترجم إلى الأودية.
- ٢- السيانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني. محمد محسن الترهتري ، ط - لاهور.
- ٣- أبجد العلوم للفتنوجي صديق حسن خان. ط دار الكتب العلمية ، بيروت - (١٣٩٨) - (١٩٧٨م).
- ٤- فهرس الفهارس والأثبات ، عبد الحي الكناني- تحقيق احسان عباس - دار الغرب الاسلامي -بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
- ٥- الحطة للفتنوجي ، ط دار الكتب العلمية -بيروت.
- ٦- الأعلام للزركلي ، خير الدين الزركلي دار العلم - بيروت ١٩٨٢م.
- ٧- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة -بغداد -دار احياء التراث العربي - بيروت.
- ٨- مقدمة المسوى شرح الموطا ولي الله الدهلوي - دار الكتب العلمية -بيروت ٢٠٠٢م.
- ٩- مقدمة كتاب الإنصاف للشيخ أحمد راتب عرموش بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.
- ١٠- فهرس الفهارس والأثبات عبد الحي الكناني: - تحقيق إحسان عباس- دار الغرب الإسلامي - بيروت - (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م).

- ١١- الفتح المبين في طبقات الأصوليين عبد الله مصطفى المراغي: - القاهرة- ١٩٤٧م.
- ١٢- تاريخ الإسلام في الهند عبد المنعم النمر: - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر- بيروت- (١٤٠١هـ = ١٩٨١م).
- ١٣- الأخلاق بين الفلسفة وعلماء الإسلام مصطفى حلمي: - دار الدعوة- القاهرة- ١٩٨٦م.
- ١٤- الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية فاطمة محجوب - دار الغد العربي- القاهرة- ١٩٩٥م.
- ١٥- الإرشاد إلى مهمات الإسناد» للدهلوي ط بالفارسية .
- ١٦- المستدرك للحاكم - دار الكتاب العربي - بيروت -
- ١٧- دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانتته لأبي الحسن الندوي - محاضرة في رابطة العالم الإسلامي
- ١٨- رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، لأبي الحسن الندوي -دار القلم - الكويت - .
- ١٩- «المراقبة» شرح المشكاة. ط ، بيروت .
- ٢٠- الثقافة الإسلامية في الهند (الطبعة الثامنة مجمع اللغة العربية دمشق)
- ٢١- حياة الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي، ط ، لاهور ، والهند للشيخ خليق أحمد النظامي .
- ٢٢- الثقافة الإسلامية في الهند العلامة عبد الحي الحسني «.
- ٢٣- مقدمة «مفتاح كنوز السنة» دار احياء التراث العربي -بيروت ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م-
- ٢٤- مقدمة «حجة الله البالغة»
- ٢٥- الكلمات الطيبات .ميرزا مظهر - ط الهند .

- ٢٦- التفهيمات الإلهية، للدهلوي ، مجموعة في التصوف والعقيدة والكلام - ط الهند ، وباكستان .
- ٢٧- نزهة الخواطر (الاعلام بما في تاريخ الهند من الاعلام) دار ابن حزم - بيروت - ١٤٢٠ - ١٩٨٣ -
- ٢٨- نزهة النواظر وجنة المناظر لعبد الحي الحسني- ط الهند
- ٢٩- مقدمة «المصفي» - ط الهند بالفارسية ، وهو أصح من المسوى .
- ٣٠- مقدمة «أوجز المسالك»، «الفائدة الثانية في درجة الموطأ من بين كتب الحديث» ، للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي - طبع مطبعة السعادة بمصر (١٣٩٣هـ-).
- ٣١- وصية نامه (بالفارسية) - أي رسالة في الوصية ط الهند ، وباكستان .
- ٣٢- رسالة «تراجم أبواب البخاري» للشيخ العلامة محمد زكريا الكاندهلوي (١٤٠٢هـ) . ط الهند .
- ٣٣- حجة الله البالغة، للشيخ الدهلوي ط بيروت .
- ٣٤- نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية». للعلامة الزيلعي- ط دار احياء التراث العربي - بيروت- (١٤٠٧-١٩٨٧ م) .
- ٣٥- فيوض الحرمين، للدهلوي ، ط باكستان والهند ، بالفارسية والأردية .
- ٣٦- عرب وديار هند للشيخ خواجه بهاؤ الدين الأكرمي الندوي البهتكليي، والكتاب في أردو. بالأردية .
- ٣٧- الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف.للدهلوي .ط باكستان والهند ، بالفارسية والأردية والانجليزية .
- ٣٨- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف «طبع دار النفائس بيروت»
- ٣٩- «الخير الكثير»، للدهلوي .
- ٤٠- «قرة العينين» ، للإمام الدهلوي.ط الهند ، وباكستان ، وترجم إلى الأردية.

- ٤١- عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد ، للدهلوي ، ط الهند وباكستان .
- ٤٢- «لسان العرب» دار صادر-بيروت .
- ٤٣- «علم الكلام» .
- ٤٤- «نعمة الله السابعة» مقدمة .ترجمة لحجة الله البالغة إلى الأردية ،
والمترجم الشيخ عبد الحق الحقاني ، ط الهند ، وباكستان .
- ٤٥- المدخل لدراسة السنة النبوية د/ يوسف القرضاوي - ط ، الثالثة (١٤١٢
- ١٩٩٢م) .

